

رواية

# عقد زوال

بنتار النهار



عقد زوال

رقم الإيداع لدى دائرة  
المكتبة الوطنية  
2015/4 /1788

**813.9**

فواز، بشار جميل  
عقد زوال - بشار جميل فواز - عمان: دار فضاءات، 2015  
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

\* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.  
\* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتر هذا  
المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

**ISBN: 978-9957-30-712-7**



**الطبعة الأولى: 2016**

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

عقد زوال - بشار جميل فواز - الأردن

دار فضاءات للنشر والتوزيع - المركز الرئيسي

عمان - شارع الملك حسين - مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 - 962) هاتف جوال: 911431 - (+962)777

ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن

E.mail: [Dar\\_fadaat@yahoo.com](mailto:Dar_fadaat@yahoo.com)

Website: <http://www.darfadaat.com>

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة  
المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: دار فضاءات

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

بشار النّهار

عقد زوال  
رواية





## الإهداء

إلى الهدوء الذي يتساقط عليه الانتظار..  
إلى فواز جميل..



## الفصل الأول

اختفت الشمس، غطى القرية غروبٌ ثقيلٌ وباردٌ، صاحبتة الغيوم النازلة كأنداء ماعز سوداء تتدلى من سماء القرية. صوت الريح الخارج من حنجرة الشتاء لا يهدأ، يختلط بصوت أوراق الأشجار والأغصان التي تضربها الريح؛ فتهوي الأوراق من وطأة القلق، تنزل على الأرض وتتحرك ضاربةً في الشوارع الضيقة، فهي من تعطيها صوتاً يبيث شبح الحياة فيها. قطرات المطر تضربها الريح، تتصادم مع بعضها البعض، تبدو وكأنها خيوطٌ متجهة إلى الأرض كلعاب الهواء، تستبينها عند ضوء عمود الكهرباء، في أول الشارع الضيق، العمود، الوحيد الذي كان مضيئاً في ذلك الوقت.

توقفت السيارة أمام البيت، في مساحة الضوء المخنوقة، نزلت عذاب منها وهي تحمل طفلتها الجديدة، سارت بخطوات منهكة باتجاه البيت - لم تع ما الذي تعنيه جغرافيا المكان؛ لذا لم يترتب في ذهنها المشهد على هذا



النحو- دخلت الباحة تضم طفلتها بقوة. سارعت في خطواتها خشية أن يبللها المطر. التفت أطفالها حولها تحت وابلٍ من حجارة المطر العتيّة، لم يكثرثوا بالطين تحت أقدامهم؛ فإنهم متشوقون لرؤية المولودة الجديدة. طلبت منهم خوفًا عليهم، أن يسرعوا الغسيل أقدامهم والدخول إلى الغرفة. قابلها وجهًا لوجه، سمع منها جوابها، غضب غضبًا جمًّا بعد أن علم أن المولود أنثى، لأك غضبه بنزق كبير، أعطاهما ظهره وسار بمشاعره المختلطة؛ وهو يدبّ قدميه بثقل على الشارع الممتلئ بماء المطر والحفر، أصوات الأطفال تتعالى فرحًا بقدم المولودة الجديدة، حاولوا جاهدين الاقتراب منها لتقبيلها، منعتهم خائفةً من سقوط إحدى الشموع المشتعلة على الأرض جرّاء حركة أطفالها التي لا تتوقف.

إنّ أغلب النساء في الحي جئنَ إلى بيتها رغم غزارة المطر وسوء الجو، بعد أن انتقل الخبر بينهنّ، في النهاية، لطالما كنّ من هذا الحي الذي يتعاطى الأخبار والأحداث كأنها فستق يرقص في الأفواه على مدار الساعة. دخلن عليها مبيلات بماء المطر للاطمئنان عليها وعلى طفلتها، حملت جارة عذاب، ماويةً الطفلة ووضعتها في حجرها، من ثم كشفت عن جسمها رغم برودة الجو، فكت ملابسها، وتفقدتها بالكامل، ونفخت على الحبل السري بهدوء. بعدئذٍ أكدت أن صحة الطفلة جيدة، وأخذن يهللن ويباركن،

التفتت إلى عذاب وسألتها: أين سوف تدفن بقايا السرة؟ ونصحتها بإلقائها في النَّهر بعد سقوطها، وراحت تعيد وضع الملابس على الطفلة مرة أخرى.

انتشرت رائحة القرفة في البيت وتناثرت قطع الحلوى المغلفة بالسُلوْفان، بعد أن فتح الأولاد العلب التي أحضرتها النسوة معهن، بعد أن خرجن، تناول طعام العشاء على عجل، أسند ظهره إلى الحائط وأحس ببرودته، ابتعد قليلا عنه، إلا أنه راقب وتأمل الطفلة بحزن، وفي داخله عشرات الأسئلة تبتعد وتقترب منه. مدَّ نفسه على فراشه وسحب الغطاء إليه، غطى جسده كاملاً وبدأ يستسلم للنوم رويداً رويداً تاركاً أسئلته تتمدد في داخله كذلك.

لم يكن حيدر مهياً للتعليق حتى لو بكلمة، كان النوم همَّ الوحيد، أغلق عيناه في محاولة للهرب إليه. فكلُّ دسِّ نفسه في فراشه واستسلم للنوم بعد يوم طويل من اللعب والصراخ، غير مكترثين بالبرد والمطر، أما عذاب بقيت مستيقظة، أرضعت طفلتها، وبدلت لها قطع القماش التي أعدتها على شكل حفاظات، وضعتها في منديل قديم. كانت قد أعدتها قبل مجيء الطفلة بثلاثة أشهر، فقد صنعتها من الملابس البالية التي تحتفظ بها، بعدئذٍ انحنت على الشموع، أطفأها وعادت إلى فراشها، واستسلمت للنوم هي أيضاً، في ظلام دامس.

بدت المنسيّة امرأة ترتديها السحب السوداء، ترسل بردها كلعنات  
محمولة، كالطعنات القارصة فيقلب ساكنيها، إنّ برد شتائها قارس ولاذع،  
يكاد ينسي أهلها أنّهم يعيشون في أخفض بقعة على وجه الأرض. تحاول  
مغادرة اسمها، بعد أن ترعرعت في حفرة عميقة؛ حفرة الانهدام.

إنّها المنسيّة، كيف ينهدم من جاء تحت المطر يكلم أغصانها؟

عذاب، صلاب، وأهل القرية أجمعون، يكادون أن يغفلوا ضجّة كعبها  
العالي؛ المنسيّة، ذلك الوعاء المستدير، موسيقى تنشر الارتباك، وتكاد تُسمع  
من كل مكان، بعد أن لقت الفصول على خصرها، والمطر لا يتوخى أن  
يبللها. وهو الذي جاء ليراوغ القحط والعطش، إلا أن الشمس الحارقة في  
المنسيّة ثكلى، وصوت الريح فيها يزداد كلما توغل الليل، إلا أن ريح المنسيّة  
غارة تفكّ صفائر الأرض وتغير شكل وجهها، ريح تضربها من كل اتجاه،  
وتعيد رسم جغرافيا العتب بعد أن خاطت ملابس ضجتها وجاءت بزيتها  
منسيّةً، إلى المنسيّة. ثمّة فوضى هناك، تتحرش بساكنيها على هيئة صوت  
الكلاب الضّالة في الأزقة الضيّقة، وصياح الديكة عند الفجر.

فرحت عذاب بقدوم مولودتها الجديدة، فإنها أول أنثى ترزق بها بعد  
ثلاثة ذكور. في الصباح التالي أفاق حيدر على صوت الطفلة، ووجد زوجة

أبيه تبدل لها قطع القماش التي اتسخت وتضع لها قطعاً جديدة ونظيفة، سألها عن حال الطفلة، أجابت بابتسامة ووجه أصفر منهك:

- جيدة.

اقترب حيدر من أخته وقبلها، من ثم ذهب بيدل ملابسه استعداداً للخروج إلى العمل، وبرتابة تقود طائرة يومه، تناول مقص الأشجار، وضعه في جيب بنطاله وخرج باتجاه الشارع، وقف ينتظر (ألبك آب) الذي ينقل العمال من الحي إلى المزارع المترامية حول المنسية، وبعد ذلك عاد صلاب إلى البيت، خارجاً من وكر القمار والخمر، غائباً عن نفسه وحجمه، لاحت منه بقايا ابتسامة مبهمة متعفنة، وهو يفرقع علكته، ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه، وقف أمام حيدر وأخبره أنه ربح في سهرته الفائتة بعض النقود. لم ينطق بكلمة واحدة، أحسّ أنّ الكلام تشنجات تغتصب سكوته وردة فعله. توقف البك آب على طرف الطريق، استأذن من أبيه، غادر حيدر في حين أن أبيه اتجه إلى البيت. وضرب باب الغرفة الخشبي شبه المتناسك بقدمه، دخل بقامته الكروية، وبعد برهه من الوقت همّت زوجته بوجهها الأصفر الذي يحمل جثة ابتسامة، أن تطلب منه:

- الأولاد يريدون....

قطع كلامها بصرخته، ثم أخبرها بلا مبالاة ولا اهتمام برده فعلها أنه ربح بعض الدنانير، تناول قطع النقود المعدنية، ورمى على كل واحد من الأولاد قطعة نقدية من فئة العشرة قروش. وأمرها أن تعد له طعام الإفطار وطلب من حيان أن يذهب للبقالة ويشتري البيض والخبز. قبل أن تضع طفلتها في مكانها طلبت منه أن يسدد ثمن فاتورة الكهرباء والماء وأن يشتري مدفأة للبيت، لأنها تخاف من الشموع المشتعلة المترامية في زوايا الغرفة. تجاهل كلامها، وهمّ بتبديل ملابسه استعداداً لتناول الإفطار والنوم. اتجه حيان إلى البقالة، بينطاله الأزرق شبه البالي وجسمه النحيل، طلب من باقر صاحب البقالة أن يعطيه الأغراض، وطلب منه أن يسجل ثمن البيض والخبز على دفتر الدين.

نظر إليه بتمعن من ثم نظر إلى دفتر الدين ذي الحجم الكبير، الموضوع على الطاولة المفروش على سطحها أوراق الجرائد. نفخ على الدفتر من خلف طاولته، وراح يقلب صفحاته بحثاً عن صفحة صلاب، تناول قلم الحبر المربوط مع دفتر الدين الكبير بخيط أبيض سميك. تحول مع مرور الزمن إلى اللون الأسود. بعدئذ ناول حيان كيس الخبز وأربع بيضات، ثم سجل على الدفتر ثمن كيس الخبز وثمان خمس بيضات ونظرات عيونه تنتقل ما بين باب البقالة ودفتره الكبير من خلف نظارته سميكة الحجم.



ارتفع صوت البريموس، وضعت المقلاة بجانبه وعلبة زيت للقلي، ملأت رائحة الكاز المنبعثة الغرفة. على عجل أعدت صحنا من اللبن وآخر من الزيتون الأسود. كانت تلفّ إحدى طرفي المنديل المثبت على رأسها حول وجهها، لتتجنب رائحة الكاز، وتنظف يديها عندما تتسخان، في حين أن عيني صلاب الجمراتين تراقبان ابتته. وأصابع يده اليمنى تحك رأسه بعنف، إنّ الطفلة غارقة في نومها. لا تعلم ما يدور حولها، ولا يعينها هذا الذي ينظر إليها ويتأملها غاضبًا.

لأنها جاءت إلى العالم أنثى؟

جاءت وتهتمها معها، وأيُّ تهمةٍ هذه؟ ألصقت فيها في الدقائق الأولى من ولادتها. ومثلما تستقبلُ منفضة السجائر أعقاب سجائره هي تستقبل السموم بعد أن صار صدرها منفضة أخرى لأعقاب سجائر أبيها. صدر يزف إلى التلوث تحت نظراته.

وضعت الطعام أمامه وكما جرت العادة منع الأولاد وعذاب أن يشاركوه الطعام، غير اتجاه نظراته ولكن بين الحين والآخر تبقى الطفلة في مرماها، و بعد أن أنهى طعامه أحضرت عذاب المزيد من اللبن والزيتون الأسود، وطلبت من أولادها تناول الإفطار، قدم إمام كوبًا من الشاي لأبيه، همّ

بوضعه أمامه، وما إن لامست قعر الكوب الحصير القديم، حتى صرخ بأعلى  
صوته:

- أف حمار!

فهمت عذاب أنه لا يجب شرب الشاي مع القرفة، تناولت كوب الشاي  
بسرعة واتجهت إلى الريموس، حمدت الله في سرها أنها لم تطفئه، وضعت  
الإبريق من جديد عليه لتصنع شاياً بدون قرفة. تناول الأولاد حقائبهم  
المدرسية البالية، فهبّ صلاب صائحاً يطلب منهم أن يفتحوا التلفاز،  
سرعان ما سقطت الكلمات الغريبة عليها، عرفت أنه لا يزال غارقاً في  
الخمير؛ والذي أنساه أن البيت بلا تيار كهربائي ولا حتى أبوي. عادت إلى  
سكوتهما وهي تتذوّق الحسرة قرفاً.

وعادت إلى التفكير في وضعها، فإنّ ما يكسبه حيدر ويحصل عليه من  
مال لا يكاد يكفي سداد متطلبات البيت، ومتطلبات زوجها الذي لا يكف  
عن إعطاء الأوامر، حتى ثمن سجائره وثمرته يأخذها منه، نهاره أوامر  
ونوم، وليله خمرة وقمار، آه آه آه يا عذاب آه آه السكوت أفضل، أعانك الله يا  
حيدر وأعانني معك.

أعدت الشاي وقدمته له وعادت إلى الريموس، نقلته إلى باحة البيت  
حتى تخفف من رائحة الكاز في الغرفة، نقلته بحذر. حذر مشلول على حمى

الرغبة، رغبة أن يطلب منها أن تعيده إلى الغرفة بحجة أن ناره تشع الدفء فيها.

وضعت قدر ماء متوسط الحجم على ثلاثة حجارة متوسطة الحجم، وأشعلت تحته بعض قطع الحطب الجافة. في حين أنّ صلاب يتناول الشاي الخالي من القرفة، تفقد علبة سجائره وبعد أن عدّ السجائر المتبقية في داخل العلبة، رمى العلبة أمامه، وسألها:

- من حلب البقرة في الصباح؟

لم تجبه ولم يعلق بشيء، والدخان يتطاير من سيجارته ومن أنفه وفمه وأصابع يده اليسرى أحضرت الحوض المعدني الذي تغسل به الملابس (اللقن)، سكبت فيه الماء الساخن ووضعت الملابس وقليل من مسحوق التنظيف. وأبقت نصف الدلو مليئاً بالماء الساخن. بدأت تغسل، وتخلط الماء الساخن مع البارد تفرك وتدعك قطع الملابس، قطعة قطعة، وهي تنظر إلى زوجها من خلال الباب الخشبي شبه المتماسك. حمدت الله في سرها أن النوم بدأ يجل في بدنه بعد أن ملأ بطنه بالطعام وهي جالسة تدعك وتفرك قطع الملابس ورغوة الغسيل.



غطت يديها، وكأنتها وضعتها في غيمة من الفقاعات، وفكرها مشغول بالاسم الذي ستختاره لابنتها بعد أن اقترحن عليها النسوة عشرات الأسماء.

أعادت غسل قطع الملابس بالماء البارد ووضعتها جانباً، ثم تناولت دلوًا آخر ووضعت فيه قطع الملابس المغسولة، ملأت دلوين من قطع الملابس واستعدت لتعليقها على حبل الغسيل. إنّ غسل الملابس من الأعمال التي تمارسها عذاب كل يوم، إضافةً إلى أنها تبدأ يومها بحلب البقرة، وأحياناً يساعدها حيدر ويحلب البقرة عنها، ثم ترتب الغرفة والمطبخ الصغير الملاصق للغرفة التي تجلس وتنام فيها العائلة، وبعدها ترتب صحون اللبن التي تبيعها لأهالي الحي. وحين يذهب الأولاد إلى المدرسة تقوم بغسيل الملابس ثم تكنس باحة البيت وتنظفها. وأحياناً تذهب إلى المزارع القريبة من البيت تجمع الحطب وتضعه في زاوية باحة البيت. في أيام المطر وفصل الشتاء تكف عن كنس الباحة، تكتفي بجمع أوراق الأشجار المتطايرة والمتناثرة في باحة البيت وتجمع كذلك الأكياس البلاستيكية التي حملتها الرياح إلى باحة البيت، بعدئذٍ تنظف البيت، وعند انقطاع المطر وظهور الشمس تقوم بتشمس الفراش وفتح الباب الخشبي شبه المتناسك لتهوية الغرفة، من ثمّ تثبتُ قطع الملابس بواسطة الملاقط الخشبية على حبل الغسيل الممتد بين

شجرتي الزيتون. بعدئذٍ تحضر عصاً طويلة في مقدمتها شق طولي صغير؛ لترفع بها الحبل إلى الأعلى. إنّ العصا عبارة عن ساق شجرة حور طويلة وجافة، تُدخلها في الحبل وترفع إلى أعلى. ويرتفع الحبل المعلق عليه قطع الملابس، ونهاية العصا تركز على الأرض.

سكبت ما بقي من ماء الغسيل تحت شجرة الزيتون، واتجهت لتفقد الغرفة المبنية من الطين المغطاة بسقف من الألواح المعدنية، حيث تقف البقرة. وحيثُ وضعت المزيد من الأعشاب، وتزيد كمية الماء. بعدئذٍ دخلت لتفقد طفلتها، فرحت لأنها كانت نائمة. اتجهت إلى المطبخ الصغير الملاصق للغرفة. تناولت سكينها واتجهت إلى شجرة الزيتون الضخمة. حيث يرتمي تحتها حجر أسود من الصوان، تشحذ عليه السكين قبل أن تبدأ باستخدامها. غسلت الحجر ومررت عليه السكين عدة مرات، تفحصت حد السكين وجدته حاداً، أعادت الحجر إلى مكانه واتجهت إلى مكان الأواني البلاستيكية والمعدنية التي تضعها أمام الغرفة المملوءة بالماء الذي تستخدمه للطبخ وأغراض البيت. إنّها أكثر من خمسة عشر دلوّاً مختلفة، وحوالي إحدى عشر دلوّاً منها صغيرة الحجم ومنها كبير الحجم ومتوسط الحجم بالإضافة إلى علب زيت القلي الكبيرة الفارغة معظمها مغطى بقطع من ألواح الخشب والكرتون المقوى. رفعت إحدى الألواح الخشبية، صبّت الماء على السكين

غسلتها وعادت للداخل تناولت حبة بصل قشرتها وقطعتها ثم أحضرت ضمة كبيرة من نباتات الخبيزة، كانت مغسولة وجاهزة للتقطيع. بعد أن أنهت تقطيع وفرم أوراق الخبيزة الطرية، تفقدت علبة السمنة وعدت حبات البصل المتبقية لديها، ورؤوس الثوم وكمية الطحين.

فتحت الباب الخشبي شبه المتناسك لتبدل هواء الغرفة، طارت الحمامات من الباحة بعد أن نزلن ليشربن الماء المتجمع فيها، ويلتقطن ديدان الأرض الصغيرة. لاحظت أن الماء يتقطر من الملابس المعلقة على الحبل، لم تهتم كثيراً لأن لديها قطع قماش جافة كثيرة في الخزانة.

\*\*\*

إنَّ لُبَيْدَ أَوَّلِ الْوَاصِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ بَعْدَ أَنْ انْتَهَى الْيَوْمَ الدَّرَاسِي، دَخَلَ وَرَمَى حَقِيْبَتَهُ الْمَدْرَسِيَّةَ الْبَالِيَةَ عَلَى الْأَرْضِ، فَخَرَجَ مِنْهَا صَوْتُ الْبَنَانِيرِ الزَّجَاجِيَّةِ الَّتِي يَحْتَفِظُ بِهَا فِي الْحَقِيْبَةِ، وَفِي الْآنِ ذَاتِهِ عِلَاصُ صَوْتِ أُمِّهِ مُطَالِبَةً إِيَّاهُ بِالذَّهَابِ لَغَسْلِ قَدَمَيْهِ، وَانْتِظَارِ إِخْوَتِهِ لَتَنَاوُلِ طَعَامَ الْغَدَاءِ مَعَهُمْ.

- ما زال نائماً.

قال لبيد:

- بسرعة نظرت إليه بنظرات كروية نارية، نزلت على سفح وجهه وطلبت منه أن يسكت، تجاهل كلامها قائلاً:

- أريد ملابس، أقلامًا، مرآة، حذاءً..

صوت شخير أبيه يملأ الغرفة، يخرج من فمٍ تتداخل فيه الخشونة وقوة الصوت، يعتليه شاريان عريضان، لونهما أصفر عند المنتصف؛ من كثرة التدخين. تعلق جسمه المنتفخ من جهة بطنه وصدره بطانيات فيها رقع حمراء وزرقاء، الرقع ترتفع وتنزل مع حدوث شهيقه وزفيره.

الأصوات تتداخل، صوت الشخير وصوت البريموس و صوت حبات المطر في الخارج، و صراخ التلاميذ الخارجين من المدرسة، العائدين إلى بيوتهم وأصواتهم تملأ الشارع المحاذي للبيت. بعد أن أنهوا يومهم الدراسي وانطلقوا إلى الصراخ والضحك في الشارع لحين وصولهم إلى بيوتهم، دخل حيان وإمام، وضعا نعليهما تحت طشت قديم مقلوب ووضعا أمام الغرفة لهذه الغاية، وحتى لا يبللها ماء المطر. انطلق صراخ الطفلة، فرح إخوتها لأنها استيقظت من نومها وانطلقت أسئلتهم عن الاسم الذي سيختارونه لها ومتى سيسمونها إياه، اختصرت عذاب جميع الأسئلة، وأعطت إجابة واحدة:

- اسألوا أباكم.

رائحة الخبيزة انتشرت في الغرفة بعد طبخها، وضعتها عذاب في صحن بلاستيكي كبير والبخار يتصاعد من الطبق فاتحاً شهية الجميع. دخل حيدر

يحمل بيده كيساً أسود مليئاً بحبات البرتقال والليمون وفي يده اليسرى كيسٌ مليءٌ بأوراق السبانخ الخضراء.

رغم غياب الكهرباء وعلى ضوء الشموع المنطلق من زوايا الغرفة؛ التي أعطت لوناً قمرياً بعيداً لفضائهم الصغير، أعادت إشعال الريموس ووضعت عليه قدر الماء الصغير لتعد الماء الساخن لحيدر. القدر من الخارج أسود اللون (طبقة من السواد الكثيف التصقت به، بسبب الشحار الناتج عن نار الريموس ونار الحطب).

عند نفاذ الكاز تضطر عذاب لتسخين الماء على نار الحطب، إن منظر القدر من الداخل عكس منظره من الخارج. من الداخل نظيف وليس به سواد، اعتادت أن تنظفه من الداخل بالماء الساخن وتفركه جيداً بأوراق النعنع البري ومسحوق التنظيف. تناول حيدر القدر وخلط الماء الساخن مع البارد ليعادل حرارة الماء واضعاً ملابسه النظيفة حول عنقه.

استيقظ صلاب خارجاً من بين مخالب نوم ميت، بسبب صراخ الطفلة وأحاديث الصغار، حقائق وكتب ودفاتر على مرأى عينيه. الأولاد يحاولون القراءة والكتابة في الظلام الذي تعاركه الشموع بتواضع وبأس. اتجه من بين الكتب والحقائب إلى الخارج بجسمه الكروي، صفعه برد الجو، رفع إحدى الأغطية الخشبية عن إحدى الأواني المليئة بالماء، وجدها فارغة، رمى الغطاء

باتجاه الحبل المعلق عليه الغسيل، رفع غطاءً آخر، مد كلتا يديه في الإناء، غسلهما ومسح على رأسه ووجهه ودخل غاضباً. ناوله حيان المنشقة، مسح بها وجهه، واتجه إلى بنطاله المعلق على الحائط بمسار كبير.

تناول مشطه الصغير من جيب البنطال سائلاً عن المرأة، بسرعة، وفي الآن ذاته، مدّ يده إلى أسفل الخزانة وتناول المرأة الدائرية الصغيرة، ناولها له بخوف، تأمل وجهه في المرأة وحرك شعره المجعد بإصبع يده اليمنى ثم مرر المشط ذي الأسنان المتباعدة سريعاً في شعره، رامياً المرأة على إحدى الوسائد، عاد وجلس على فراشه ينظر بعينين حمراوين إلى أي شيء تقع عيناه عليه. صوّب نظراته على زوجته وطلب منها أن تحضر الطعام.

سارعت بوضعه أمامه وعادت لإحضار كوب الماء له، تأمل الطعام بغضب وطلب منها أن تعد له شايًا بدون قرفة، دخل حيدر، ألقى التحية على أبيه، لم يرد عليه، بعد أن نظر إليه بعيونه الجمراوتين. الطعام يدور في فمه، ويلوك الغضب في ريقه، شرب كوب الماء دفعة واحدة وأمر بكوب آخر، أحضره له لبيد وهو يرتجف.

بعد أن أنهى الطعام بسرعة، تناول سجارة من العلبة، أشعلها وبدأ ينفث الدخان بعصبية. ويده الأخرى تمسك كوب الشاي مستمتعةً بدفء الكوب، فجأة، طلب من حيدر أن يسدد ثمن فاتورة الكهرباء والماء، وأن

يعيد التيار الكهربائي إلى البيت بأي وسيلة، وحلقات الدخان تتطاير فوق رأسه. حرق سجائره، إنَّ سجائر شتائه لا تنطفئ، شرب الشاي وعاد يمد نفسه في الفراش. وضع تحت رأسه وسادتين مقطّقتاً مفاصل أصابع يديه. من ثمّ طلب من الأولاد التزام الصمت والهدوء، أسلم نفسه للنوم من جديد.

صوت بكاء الطفلة ظهر فجأة في الغرفة مشوباً بصوت سعال خفيف، سببه لها الدخان المتصاعد من سجائر أبيها، ذلك العاقل عن العمل والعاقل عن الأبوة.

أنهت تحضير اللبن الذي تصنعه من الحليب بنفسها، واستعدت لسكبه في الصحون، تلك التي ترسلها النساء مع صغارهن إلى بيت عذاب، كل امرأة تضع قطعة نقود أو مجموعة منها حسب كمية اللبن التي تريد أن تشتريها من عذاب. منهن من تضع قطعة من فئة ربع دينار، أو قطعة من فئة نصف دينار أو قطعتين: كل قطعة من فئة خمسة قروش. تعرف عذاب صاحبة كل صحن من ألوان الصحون وحجمها، صحن جارها ماوية برتقالي اللون وكبير، وصحن أم سطم، فيه شقُّ من الأعلى، وصحن أم القادري أزرق اللون عليه نقوش غريبة وجملة "صنع في الصين"، صحن أم ليساء صحن معدني فضي اللون متوسط الحجم.



بعد النوم على شخير واحد، فتح عيناه في المساء. دون أن ينظر إلى أحد طلب من لييد وصوته نائم ميت أن يحضر له الحذاء. اتجه إلى الطشت المقلوب، رفعه وتناول الحذاء ووضع أمام عتبة الباب الخشبي شبه المتناسك، وعاد يقلب صفحات كتابه على أضواء الشموع المتواضعة وما لبث أن سمع صراخه:

- أف امسح الحذاء يا حيوان!

وضع كتابه جانباً يملكه الارتباك، اتجه إلى أمه فناولته قطعة قماش كانت بقربها، وضعتها في يده وذهب مرتبكاً يمسح الحذاء ويدها ترتجفان خوفاً. نظر إليه بسرعة وجلس مكانه يقلب صفحات كتابه وأذناه معلقة تتأهب لتنفيذ أوامر جديدة، ببلادة مقبلة، قام من مكانه على عجل، أعطى ظهره للجميع، اغتسل وتناول بنطاله المعلق على الحائط لبسه وسترته دون أن يعلق بكلمة واحدة، انتعل الحذاء وخرج من باحة البيت يتأفف ويشتم عذاب والأولاد، في حين أنه سب الذات الإلهية ثلاث مرات متتالية وسار باتجاه الشارع.

جهزت العشاء للأولاد بعد أن أنهت سكب اللبن في الصحون، اتجهت إلى طفلتها، التفوا حولها وهي تضع الطفلة في حجرها، ونظراتهم صوب أختهم



التي تحمل اسماً طال انتظاره ولم يأت. دخل أحدهم ووضع صحناً فيه ربع دينار على عتبة الباب، وانطلق دون أن يخبر عذاب ابن من هو. لكنها عرفت من شكل الصحن أنه ابن تيممة.

في الرابعة فجراً، عاد من سهرته ترافقه أصوات الكلاب الضالة، وقف أمام الباب الخشبي شبه المتماك، ضربه بقدمه اليمنى، سارعت بالسؤال خائفةً:

- من؟

أجابها صلباً ومتكوراً في الآن ذاته، أمامها:

- أف هذا أنا!

قامت تمشي ببطء صوب مكان الشمعة في زاوية الغرفة، تحسست علبة أعواد الثقاب تناولت عوداً منها، مررت على أحد جانبي العلبة، أشعلته وأشعلت الشمعة، أعطاهما الضوء الباهت صورة زوجها وملاحه وسرعان ما انطفأت الشمعة بسبب الهواء الداخل من الباب. طلبت منه أن يغلق الباب بسبب البرودة. تجاهلها ويده تفكان حزام بنطاله وعيناه تبحثان في الحائط عن مسمار مثبت. عاد مخموراً. كالعادة كظمت غيظها، اتجهت صوب الباب أغلقتة وأشعلت الشمعة مرة أخرى وطلبت منه أن يعود إلى أصدقائه وإلى وكر القمار الذي يقضي ليله فيه، سمع تعليقها، ببرود وهدوء

ثقل شد الحزام من بنطاله دون ان يتحرك شيء في مستنقع لسانه، ثناه ومسكه بيده اليمنى ضربها على ظهرها وهي منحنية على طفلتها تمسح فاها من القيء. ألحقها الضربة الثانية والثالثة بسرعة جلاد حاقد. نظرت برعب إليه فاصطاد وجهها ضربة من الحزام.

ارتفع صوت صراخها مع الدم النازل من فمها وهي تطلب منه أن يتوقف عن ضربها، كلماتها خرجت دامية من فمها، خرجت مذبوحة نازفة من بين شفثيها، خرجت مع دمٍ أدمن الحشرات. استيقظ الأولاد وهم يصرخون، قلبت الغرفة كلها إلى دائرة يلحق فيها الجلاد من بين يديه ليحقق انتصاره الغاشم، الضربات تتلاحق على جسدها. أخذ حيدر الحزام من يده بصعوبة ومشقة بعد أن لحقته بعض الضربات. ارتمت بجانب طفلتها كأنها مذبوحة، ودموعها تلاحق شهقاتها، حاولت أن تمسح الدموع بردن ثوبها كي لا تفقد قوتها أمام أبنائها، لكنّ الدمع أبى ألا ينسكب قهراً فأخذت تعزف في أرجاء البيت أنينا وعزلةً ممزقة، فتح الباب بعد أن فرغ ما يحمل من الذخيرة الأبوية المجبولة بالخمير في البيت، تبعه حيدر ليرى ما سوف يقوم به رآه يخرج إلى الشارع، عرف أنه عاد إلى أصدقائه، وإلى ووكر القمار.

أضاء حيان شمعتين، عدلت من جلستها وحملت طفلتها وعيناها تسكبان دمعاً، من ثمّ أمسكت بعصا سكوتها حتى لا تقع، نظرت إلى أطفالها بعيون

حمراء فيهن فائض من الدم، اجتمعت فيهنّ كل أحزان الأرض، لم تنطق بأي كلمة كأنها تركت الكلام للتقرحات على جسدها، كأن لسانها من إسمنت. تصلّب في مكانه وخنق صوتها كأنه داخل بالون كبير لا تعرف كيف تفجّره حين يبدو الدّبوس في كوكبٍ آخر، فإنّ للوجع صوتٌ يملأ المكان ويمسك بجذور الخوف.

تناول حيان أخته الصّغيرة من أمّه، حملها وراح يضع في فمها نقط الماء المحلى بالسكر، هدأت الطفلة وهي تحرك شفيتها مستمتعة بالمذاق الخلو تنزل إلى جوفها ونظرات عذاب تتجه إلى الحائط، حيثُ صورة والدها المعلقة عليه. الصّورة التي يهددها بها دائماً كلما راق له ذلك. تلك الشّيء الوحيد الذي بقي لها من والدها، يذكرها بأنه سوف يلعب القمار مع أصدقائه وإن خسر وهو الخاسر دائماً في اللعب سوف يقدم لهم الصّورة ليكسروها أمامها ويدوسوا عليها بأقدامهم. عذاب ترى أن للصّورة أسنان حادة وأنياب ومخالب تعضها متى شاء زوجها، وهي تحت إمّته رغم أنها تحصّها، وتعنيها، تذوقت ما نسيته بشغف، وهي تعاتب النسيان في داخلها، وصعوبة التذكر تساعد ذاكرتها وأصبح قلب ذاكرتها ينبض بالأحداث. تذكرت عندما أخبرها أنه صاحب البيت وصاحب الحق. يضع صورة من يشاء ويزيل صورة من يشاء، بعد أن تحطمت كلّ الصور الأبوية في داخله

وأصبح جداراً تعلق عليه صور تخاذله. في حين أنه ليس عليها إلا أن تطهو طاعتها له وتقدمها على طبق من ذهب، متى يشاء وكيفما يشاء. أن تكون أنثى لديها جميع مقاسات الصّمت أمام المكبرات الذكورية والأبوية.

أحسّ حيدر بنفسه تحترق، تمّنى أن ينصهر في العدم ويرتاح من هذا الألم. ألم الأبوة الذي يقيمُ فيه رغباً عنه. تلك التي باسمها يصنع أبوه ما يحلو له ويتجبر كما يحلو له، والتي تحولت إلى مهبط شرعي لإحباطات كل أفراد الأسرة.

انتشله صوتٌ حيّان من أفكاره وطلب منه أن يعود للنوم، مذكراً إياه بالعمل الذي ينتظره في الصباح الباكر، بقيت عذاب في مكانها، واستسلمت الطفلة للنوم بعد نقاط الماء المحلى بالسكر، تناولت غطاءها ووضعتة عليها، من ثمّ قبلتها على جبينها. ومسحت طرفي فمها بأصابع يدها اليمنى لتتأكد من خلوه من القيء، عادت تتأمل صورة أبيها المعلقة على الحائط المرسومة بقلم الفحم، والخوف مشرط هادئ، يتحرك في روحها ببطء مجنون، وضعت كفيها على وجهها، تمسح ما علق من دم على فمها، في حين أنّ في صوتها بقايا من مقبرة الكلام، تعلق في جوفها حينما تحاول الانتصار على مرارة الحياة، تلك الجالسة تحت مزاريب قهرها. وذلك الصمت الضيف في داخلها يحتسي عبوس الحظ.

إنه صوت آذان الفجر، حرك لسانها وشففتها الداميتين، تردد ما يقوله

المؤذن:

- الصلاة خيرٌ من النوم.

فقال لبيد، بكامل فزعه:

- لا نومٌ ولا خير!

طلب منه حيدر أن يسكت ويعود إلى نومه.

عاد إلى الغرفة، وهو يطلق صفيراً من فمه. مسح المكان بعينيه، أعجبه الصمت المحيط به. سحب قدميه من الحذاء وصاح يطلب من لبيد أن ينهض ويضع الحذاء تحت الطشت المقلوب. اتجه إلى فراشه ومد نفسه فيه دون أن يغطي جسده، وهو يحك رأسه. قامت كمن يقوم إلى حتفه تمشي على أشواك دمها، خطواتها ثقيلة، جسدها منهك ونار تنزف من جسدها. جلست بصعوبة بجانب البريموس، تفحصت كمية الكاز في داخله بعد أن حركته حركة خفيفة، قامت مرة أخرى حملت إناءً كبيراً واتجهت إلى البقرة لخلبها.

بين أشجار الليمون والبرتقال يقف حيدر وصديقه علقمة؛ لقطف الثمار الناضجة. يضعونها في صناديق بلاستيكية كبيرة من ثمّ ينقلها أحد العمال ليجمعها في مكان واحد تمهيداً لترتيبها ووضعها في عبوات صغيرة.

تمشي الأسئلة بعلقمة باحثة عن أجوبة وأوعية ليضعها فيها، لطالما ابتسم حيدر بحزن حيث بانّت أسنانه البيضاء إلا قليلاً، وسأله عن سبب الصراخ الذي انطلق قبل الفجر من بيتهم، سأل وبه اكتئاب غريب، هز حيدر رأسه كأن ذاكرته تكشف عن صفحات من ألم. وراح يروي بحزن ما جرى لزوجة أبيه، كيف ضربها وكيف كانت ليلة من ضمن الليالي التي لا تنسى بعد أن طالت إقامة الألم بينهم، أكمل حديثه ويدها تمسكان حبات البرتقال، بخوف.

كأنه يقطف عن الشجر دملاً قلماً يكاد ينفجر به، أمسك علقمة حبة برتقال يراودها عن غصنها، أحاط أصابعه بها، لم يستطع شدها، فقد أحس بثقل أنه يقطف الكرة الأرضية عن الشجرة. أحس أن مرارة الأبوة في الحبة التي ينوي قطفها. وأن ذاكرته بدأت تكسر عظام جسمه عظمة عظمة، طلب منه حيدر أن يتحدث في موضوع آخر، "تبال لك يا حيدر لماذا تحدثت، ضع لسانك على طريق السكوت، أبي تعرفه كل القرية وتعرف من هو

وماهية تصرفاته، مقامر، سكير، حرامي، نصاب، شد الثمرة، فصلها عن أمها وبصوت مخنوق، قال:

- أبوك يضرب بالحزام وأبي يضرب بكل شيء أمامه بعد أن أدمن الخمر!

قالها كمن يقدم اعتذاره عن وجوده ميتاً بين الأحياء، وفي صوته عزف مجفف على جرة منبوذة.

- ما الحل، يا ترى؟ بالقرب منهم ومعهم نشعر باليتم، يريدوننا جثثاً متحركة، لا نتكلم ولا نفكر. في المزرعة أكثر من عشرين شاباً وافداً جاؤوا إلى بلادنا للعمل فيها، منهم لا يتجاوز عمره العشرين وأب لأسرة، يكّدون ليل نهار من أجل أبنائهم، وأبي جعل منا جهنم وحطبها.

مع تساقط الشار وتساقط الأسئلة منهما، ومع صوت الريح الخفيفة التي تهز أغصان الأشجار. أحضر عرندس كيساً فيه طعام الإفطار ومعه إبريق الشاي الفارغ وفي داخله قنفذ صغير وجدته في المزرعة. بعد أن اتخذ من جمع القنفاذ هوايةً له. وضع الكيس والإبريق تحت الشجيرة، وراح يجمع بعض العيدان والأغصان الجافة من ماء المطر ليصنع الشاي على نار الحطب. عاد مسرعاً يحمل مجموعه من العيدان، وبين ثلاثة حجارة صغيرة أشعل النار بالعيدان، وضع إبريق الشاي على الحجارة الثلاثة، بعد أن وضع القنفذ في

صندوق بلاستيكي، وملاً بإبريق الشاي بالماء وراح ينفخ على النار حتى لا تنطفئ.

إنّ صوت أغاني العمال المتناثرين في الحقول يتداخل في بعضه، كلٌ يغني على ليله، وصوت الضفادع يخرج بين الفينة والأخرى، يمزق وهج الأغاني. بعد تناول طعام الإفطار جلس حيدر على الأرض وبجانبه العبوات البلاستيكية البيضاء وعلى جانبه الأيسر الشريط اللاصق الشفاف. جلس وبه نوع من الطمأنينة كأنه جالس مع الحظ هذه المرة. يتناول حبات البرتقال حبةً حبةً من الصناديق البلاستيكية الكبيرة، يتفحصها جيداً قبل أن يضعها في العبوة البيضاء البلاستيكية، يمسحها بكلتا يديه، ويضعها بعناية في العبوة البلاستيكية البيضاء، أمامه أعداد كثيرة من الصناديق البلاستيكية الكبيرة، قد ملئت بحبات البرتقال، إلا أن أحد العمال وضع أمامه كومة كبيرة من أغصان شجر البرتقال الطرية الخضراء، تفوح منها رائحة طيبة، وضعها بالقرب منه مع الشريط اللاصق، وانصرف يجمع المزيد من الأغصان الطرية بعد أن أخبره حيدر أن الكمية منها لا تكفي.

رتّب حيدر حبات البرتقال بطريقة منظمة، مثلما يرتب ملابسه في خزانة النفس، بعد أن يتأكد أن جميع الحبات التي يضعها كبيرة الحجم وليس بها مرض أو عليها بقع غريبة وقبل أن يضع الحبة في العبوة يمسحها بقطعة



قماش أحضرها خصيصاً لهذا الغرض ثم يمسحها بيديه، تناول غصناً طرياً وضعه فوق العبوة المليئة بحبات البرتقال بعد أن تأكد أن طول الغصن أطول من عرض العبوة بقليل.

وضع الغصن الثاني والثالث والرابع إلى أن غطى العبوة بالكامل بالأغصان الطرية. تناول من على يساره الشريط اللاصق، سحب طرفه بعناية، انحنى على عبوة البرتقال. ثبته على جانب العبوة وشده إلى الجهة المقابلة للعبوة، مرراً اللاصق فوق أغصان شجر البرتقال الطرية التي تغطي العبوة، كرر هذه العملية إلى أن تأكد أن الشريط اللاصق ثبت الأغصان على سطح العبوة. حملها واتجه الى شجرة قريبة منه قطفت ثمارها فبدت كأنها أم ثكلى. وضع العبوة تحتها بعيداً عن أقدام العمال، وعاد إلى مكانه يجهز بقية العبوات.

أنهى العمال يومهم، أكتافهم تنزف حلاوة التعب، وتفرض سياجاً حول الشعور بمتعة العمل، حزموا أغراضهم وانطلقوا عائدين إلى بيوتهم، منهم من ذهب سيراً على الأقدام مفضلاً السير في الطرق الزراعية الضيقة حيث الأشجار تحاكي بعضُها بصمت ومنهم من صعد إلى البك آب المتجه إلى الحى.

احمرت خدود الطبيعة مع الغروب، أخذت المنسية حصتها من الشمس

وغادرتها بذوق صامت مع الأجساد والأغاني والمزارع وعطش الحناجر،  
أغاني تسمح صورها عن الذاهبين الى بيوتهم والقمر بأول إطلالته يقرص  
النهر متحرشاً بالذوق، النهر في أول الليل قيثارة ترفرف، قيثارة بدلت  
ملابسها بستائر من خيوط القمر واختفت خلفها، وطلب من المنسية أن  
ترتدي خروجها فينا. ليقشر ملاحظها في الليل على مهل، بعد أن خدر الوقت  
على ركبتيها وأنها يوماً مليئاً بالعمل والصبر في هوية احتفالية لا ينطق بها  
إلا النهر.

المنسية عطش العمال، تثق بكون اسمها يبرز كمنقار أقام في الروح، عقدًا  
في عنقها.

دخل كالتسلل إلى بيته، وفي يده كيس من البرتقال وفي الأخرى كيس  
يحتوي على الشرائط اللاصقة، تناول لبيد الكيسين منه وخلع حذاءه وضعه  
تحت الطشت المقلوب غسل قدميه، ودخل طالبًا من لبيد أن لا يعبث  
بالأشرطة اللاصقة.

أشعلت البريموس ووضعت عليه طنجرة مليئة بالحليب، أفرغ لبيد كتبه  
من حقييته المتهرثة، رتب الكتب والدفاتر أمامه وبدأ يتفقدتها واحدًا تلو  
الأخر ووضع الكتب التي تحتاج إلى تجليد على جانبه الأيمن، تفقد دفاتره  
كذلك وأخرج الدفاتر التي تحتاج إلى تجليد كذلك ووضعها فوق الكتب،

طلب من أمه أن تعطيه المقص الكبير، رفضت وهي تراقب طنجرة الحليب الموضوعة على نار البريموس، سكت برهة ثم انطلق إلى الخزانة مد يده أسفلها، تناول المرآة الدائرية، مد يده مرةً أخرى وأخرج علبة بلاستيكية يضع فيها صلاب أدوات الحلاقة. أخذ الشفرة وضعها بجانبه ودس المرآة والعلبة البلاستيكية تحت الخزانة مرةً أخرى.

طلب منه حيدر أن يتريث وأن لا يقوم بتجليد الكتب، أصر أن يجليدها قبل أن يأتي أبوه فجأة. سحب حيان الأشرطة اللاصقة وأخذ كتبه ودفاته بعد أن أخبره أنه سيقوم بتجليد كتبه ودفاته بها بدلاً من حيدر. يتصاعد الدخان من باحة البيت حيث القدر فوق ثلاثة حجارة، بخار الماء الساخن يتصاعد منه، تستغل عذاب وجود الحطب دائماً، لتسخن الماء الذي تستخدمه في الغسيل، تضع القدر جانباً بعد أن يسخن الماء، وتجلس تطبخ على النار.

وبالقرب من مكان النار يرتمي طشت به إسفنجة لجلي الصحون، وكومة من عيدان النعناع البري الخضراء موضوعة فوق حجر الرّحى. وضعت حجر الرّحى فوق صندوق خشبي قديم نادراً ما تستخدمه؛ فأكثر من يستخدمه نسوة الحي، بين الحين والآخر. إنّما الرّحى ملجأ الذكريات مع الوالدة والجدّة، عليه تغفو ذاكرتها بكل حملتها، مع ظن كبير، تقول لها:

- إن القادم أفضل، وستودعين أيامها الساكنة في الصور القديمة، إن الأحلام لم تعد نائية عنها بل قريبة منها.

في صبيحة اليوم التالي، اتجهت عذاب إلى المركز الصحي لإعطاء الطفلة إحدى اللقاحات، جلست في العيادة تنتظر دورها في قسم الأمومة والطفولة، قضت الوقت بالحديث مع النساء الجالسات في انتظار الدخول لرؤية الطبيبة، جاء دورها، أخرجت بطاقة اللقاحات من حقيبتها السوداء القديمة وما إن أبرزتها حتى سألتها الممرضة عن اسمها وعمرها، وأبدت استغرابها عندما سمعت أنها بلا اسم وأنها لم تسجل في دفتر العائلة. أخذت الطفلة مطعومها الثاني؛ مطعوم شلل الأطفال بعد أن حقنها أبوها بإبر من يأس وقلق.

تم قياس وزنها وطولها وأمها تنظر إليها، عرضت الطفلة على الطبيبة بعد أن أخذوا منها عينات من دمها، كشفت عن صدرها وبطنها وساقها وبقايا الحبل السري، صاحت الطفلة بصوت ناعم، بشرة مائبة وراكدة، تحركت وطلبت من أمها أن تهتم بتغذية الطفلة، خوفاً عليها من سوء التغذية. تكفي إصابة صلاب بفقر أبوي حاد، طفلة دمها مبلول برقصة سم متجمدة في نيكوتين أبوي يقتلها على مهل في حلبة الأبوة، طلبت منها كذلك أن تنتبه إلى صحتها وتزيد من تغذيتها.

انتهى اليوم الدراسي مع طريق عودتها للبيت، صادفت الأولاد، اصطحبتهم معها تزفها صرخات أولاد الحي، وصلت باحة البيت وطلبت من الأولاد أن يخلعوا أحذيتهم وأن يغسلوا أرجلهم، وضعت الطفلة في مكانها قرب الخزانة وذهبت تقشر حبات البطاطا. عاد حيدر على غير عادته من المزارع واقفاً أمام باحة البيت يتبادل الحديث مع علقمة حول العمل وحول الماعز التي يربيهها علقمة.

انصرف علقمة، ذهب إلى ساحة المدرسة ليطلق الماعز ترعى هناك، لكثرة العشب على أطرافها وفي داخلها، حيث يطلق أكثر الأهالي مربي الأغنام والماعز القريبيين في المدرسة بهائمهم هناك أيضاً. بعد أن عملوا على إحداث فتحة كبيرة في السياج المحيط بالمدرسة من جهة الساحة ليدخلوا ويخرجوا منها، وليهرب منها التلاميذ قبل نهاية اليوم الدراسي. سار علقمة بهدوئه وصبره المعهود بعد أن أخذ عناء البحث عن الرغيف، إن خمرة أبيه أخذت عقله، والفقر قشر جسده بصرخة مبتورة ألقته على وجه الحياة مهدوماً.

أخبرت عذاب حيدر أن الطعام جاهز وطلبت منه أن لا يغادر الغرفة حتى يتناول الغداء، لكنه مشغول بمراقبة نهوض أبيه من النوم على غير عادته، قام واغتسل وأمر عذاب أن تعد له الطعام وطلب من الأولاد أن لا

يزعجوه. وضعت أمامه الطعام وطلبت من أولادها الانتظار لحين أن ينهي طعامه، وبدأ بتناول طعامه على عجل. سرعان ما أنهى طعامه انتعل حذاءه مخبراً عذاب أنه ذاهب لإحضار قنديل لأنه دعا أصدقاءه إلى الغرفة ليلعبوا القمار والورق.

خرج وهو يمتلىء بالكفر الأبوي، يغضّ النظر عن أبوته غير مبالٍ بحال أولاده وطفلته التي رسم لها ضياعاً متورماً في أول يوم دخلت به عالمه الأبوي، غط الجميع في استغراب حاد، استغراب بشع، لم يترك في رأسهم أي منطق. إنّ الغرفة لا تتسع للأسرة، فهي على أي حال بلا كهرباء، ويأتي ثلاثة رجال كي يلعبوا الورق، طول الليل، مع دخان سجائرهم، ورائحة خمرهم، وعشوائية كلامهم، كل هذا على صدر الطفلة حديثة الولادة وبين لبيد الذي يعاني من الربو، وبين القهر الساكن في النفوس.

تراجعت إلى الوراثة قليلاً حذرًا وخوفًا، ناظره صوب الحائط كأنها تصلح صيحاتها استعداداً لألم جديد وعيناها مثبتة على صورة أبيها، وقلبها يرتجي الصبر.

هل تعلم يا حيدر أن الصبر هو أن تضع سنوات عمرك على شيك وتصرفه لعابر سبيل؟! حتى متى ستبقى تحصي الصدمات، حتى تكبر وتشيخ؟! اكتفى بقية الأولاد بتبادل النظرات بعد أن انفصلت الرؤيا عن

أبيهم الناضج في أنانيته الحمقاء، حطّ عليهم صمت متناقض، خرج من الغرفة/ الوكر، حسب تسمية لبيد، وما إن غادر حتى امتلأت الغرفة بالأنفاس القاسية المخنوقة والتأوهات، في وجوههم، عيون تتعاطى العيون. بحرقة، دعت الأولاد لتناول الطعام، في حين أن قلقها قابل للانفجار، رفض الجميع الأكل، بدا لها أنهم أصيبوا بعسرٍ في الشهية. نزل المطر بهدوء، من ثم اشتد.

في سرّ عذاب آلام وأوجاع، لم تزل تدعو ربها وتناجيه، دعت على زوجها أن يرجعه الله إلى البيت جثةً هامدة، مشوهًا، صراخ طفلتها جعلها تزداد غيظًا، تلك التي تتردد على الأسماء دون أن تلتقط اسمًا لها. هيهات، حتى إشعار آخر.

- أف، إن ذهبتي واستخرجتِ لها شهادة ميلاد، سأقطع يديك، أنا من يختار الاسم، أنا وحدي، هل تفهمين؟ أنا الأمر النهائي في هذا البيت. بعد أن عبرت الطفلة مضيق الحياة ووقفت في ميناء الأسرة تنتظر اسمًا لها لتتحرك عليه وتبحر في الدلالات، هي بانتظار من أقلع عن الأبوة و تعاطى الذكورة بطريقة عمياء يلفها القلق الأبدي.

ليت في ذاكرتها أقنعة حتى لا تميز من تتذكرهم، ليبتها تنزعها وتزرع ذاكرة جديدة خالية من كل العيوب والأحداث التي مرت في حياتها، عذاب

لا تعلم أن الذاكرة نوع من أنواع الدهون وكل جدران ذاكرتها مدهونة  
بدهان ذكوري من النخب الأول.

دخل عليها حاملاً كيسًا أسود، وثيابه مبللة بالكامل يكاد يعتصر من  
كثرة الماء التي شربته ملابسه، خلعها على عجل وبدا كأنه دائرة من اللحم  
اعتلاها شاربان، طلب من إمام أن يعطيه ورقة صغيرة بعد أن عالج القنديل  
الكازي، قرب الورقة من الشمعة، أشعلها ثم أشعل القنديل من نار الورقة،  
ازداد غضب عذاب والأولاد، اتجه إلى البقالة بعد أن بدل ملابسه وارتدى  
ملابس أخرى، ألقى التّحية على باقر الجالس خلف الطاولة، طلب منه أن  
يعطيه أربع علب من السردين بالزيت الحار مع كيس من الخبز وأربع علب  
سجائر وأن يسجل الثمن في الدين، سار بين العلب والأكياس الملقاة على  
الأرض أخذ علب السردين، مسح الغبار عن العلب بكمّ سترته الدّاكنة  
ووضع كلّ الأغراض في كيس أسود، أعطاه الأغراض وذكره بأن حساب  
دينه، أصبح مبلغًا كبيرًا وعليه سداده، نظر إليه بقرف وطلب منه أن يعطيه  
مهلة.

أسبوع واحد وبعدهُ سيسدّد النقود كلّها، وكالعادة أعطى باقر الأسباب  
والأعذار ذاتها، الأولاد، والمدارس، هي سبب تأخره عن السداد، نسي  
نفسه. ظن أن المنسية وأهلها صغارهم وكبارهم قد نسوا من هو؟ هو الملوّث



بكل الأخطاء الصغيرة و الكبيرة، هو أول الخارجين عن الأبوة، وعن الاستقامة الإنسانية.

يعرف باقر مصدر القرش كما يصفه الأهالي، خطرت له فكرة أثناء حديثه مع صلاب، عرض عليه أن يؤجره قطعة أرض ليزرعها ومن ثمن المحصول يسدد له الدين مع أجرة الأرض.

- أفكر في الأمر!

حمل أغراضه وخرج سائرًا باتجاه البيت تاركًا باقر في دكانه يدقق دفتر تسجيل الديون صفحة صفحة. أعاد حساب وتدقيق ما اشترته أسرة صلاب من أغراض كان يزيد كل مرة ثمن شيء، كأن يزيد ثمن بيضة أو بيضتان، أو يبيع الكمية ناقصة عن الكمية الأصلية، كيلو سكر ناقص، كيلو أرز ناقص، وأحيانًا يبيع الأنواع الرديئة بسعر النوع الممتاز والجيد.

أحبّ الجلوس في البقالة بعد أن عجز عن العمل في المزارع؛ بسبب المرض الذي أصاب عموده الفقري، وأصبح يؤجر ما لديه من الأراضي لمن يرغب بالزراعة ويفضلهم من العمال الوافدين، أغلق دفتر الدين الكبير وتناول كيسًا معلقًا بمسمار على إحدى الأعمدة التي تحمل الرفوف، كيس شفاف به فواتير من شتى الألوان، فواتير حمراء، زرقاء، وبيضاء. أخرج فاتورة لونها أزرق، أعاد ترتيب الفواتير، علق الكيس في مكانه ووضع

الفاطورة الزرقاء في جيب سترته، وراح ينظر إلى الجمر المشتعل في سطل وضعه داخل البقالة بقربه، وتارة ينظر إلى السلم الخشبي الذي يصعد عليه لتناول الأغراض عن الرفوف العالية.

دخل خشية أن يبلله المطر، رمى الأغراض على زوجته وأخبرها أن في الكيس عشاء له ولأصدقائه وأمرها أن تعده عند حضورهم، تناولت الأغراض، شد لبيد الكيس بدلا من أمه وتناول علبة من علب سمك السردين، ألقى عليه نظرة غضب حركت كل عوالم الخوف في داخله اقترب منه، صفعه على رأسه بعد أن أخذها صائحا:

- أف يا ابن الحمار، اتركها.

تناول الكيس وعلقه على المسمار الذي يعلق عليه بنطاله، وطلب من حيدر بصوت عالٍ أن يتدبر أمر الكهرباء أو أن يطرد من البيت، سكت والغضب يخلق في داخله، تناول سجادة الصلاة الخضراء اللون، مدها على الأرض قرب فراشه ووضع عليها أوراق اللعب، تفقدها بعناية استعدادا للعب. أغاظه سكوت حيدر، نظر إليه بغضب وصفه بالخنزير وطلب منه مغادرة الغرفة وإن رغب بالعودة فعليه أن يدفع له أجرة شهرية لقاء سكنه مع الأسرة، خرج حيدر وفي صدره نارًا تأكله، تابعه بنظرات غاضبة وعاد يرتب ويتفقد أوراق اللعب على سجادة الصلاة، الركوع، السجود، التشهد،

لم تسجل له السجادة الخضراء ركعة أو سجدة واحدة، فقد أحضرتها عذاب معها من بيت والدها ومن بيت لبيت وبين ليلة وضحاها بدلت السجادة وظيفتها تارة للصلاة وتارة للعمار.

بصر خاته العنيفة التي تثبت متعة مجهولة في نفسه انفجرت حقيقة أخرى أمامها حقيقة لم تحسب لها حساباً. زوجها لا يريد أحداً في البيت ومن يريد المكوث في البيت عليه دفع أجره له، إلى أين الذهاب إذاً؟ أين هو المكان المناسب للأطفال، لأطفال محاصرين بالتلف الأبوي، زوجها ينش في السخرية وهو يعرف أن ما يجمعه حيدر من المال لا يكاد يكفي لتأمين حاجات البيت. فإلى أين الذهاب؟

سمع صوتاً في الخارج عرف أنهم أصدقاؤه، هب خارجاً إليهم، ودخل بصحبة أربعة من أصدقائه، صناع الفرار. خلع معتنقي الأبوة أحذيتهم تناولها صلاب وضعها تحت الطشت المقلوب خشية أن يصيبها المطر، دخلوا وخرجت منهم وظيفتهم الأساسية ووظيفة أعمار الأرض والحفاظ على النسل الصالح وأي نسل يخرج من تحت خط فقر الأبوة. قد يكون صلاب وضعها تحت الطشت مع الأحذية بعد أن أصبحت الوظيفة الأبوية أشبه بتمارين خمر عمياء على جليد متكسر، جلسوا حول سجادة الصلاة التي انتشرت

عليها أوراق اللعب حيث شكلوا شبه حلقة دائرية حول سجادة الصلاة في  
الغرفة الضيقة.

- صلاب نأخذ البقرة إذا خسرت، موافق؟

- موافق.

بدون وعي وبصرخة عالية صاحت عذاب وهي جالسة على الحصيرة  
تتوسل إليهم أن يتركوا البقرة مصدر رزقهم الوحيد، بعد أن جف الضرع  
الأبوي وتيبس، توسلت حتى بكت، وشتائم زوجها تتقاذف عليها من كل  
الاتجاهات، أمرها أن تعد الشاي. هزت برأسها ودموعها تطرز وضوح الألم  
وتقدم له الطاعة الزوجية على طبق من قهر، متى تنتهي هذه الحياة يا عذاب؟  
هزت رأسها له وهي تمسح دمعها بردن ثوبها، جلست بالقرب من  
البريموس كأثار أقدام حية لأموات.

لم يتحدث أصدقاؤه عن البقرة بعد توسلات عذاب، استغربت، وسألت  
الله في سرها أن يتناسوا موضوع البقرة وأن يبحثوا عن شيء آخر يتحدثون  
عنه. مررت عود الثقاب على إحدى جانبي العلبة، وكأنها تمرر جسدها بدل  
العود، تمت أن تشتعل، أشعلت البريموس. وضعت إبريق الشاي على نار  
البريموس وقامت تنظر إلى الماء المسكوب في الإبريق واقفةً، تنظر إلى صور  
النجوم الثلاثة على علبة الكبريت، تنتظر غليان الماء لتصنع الشاي، تنتظر

الصبر إلى أين سوف يوصلها، ومصير العائلة بيد رجلٍ لا تعلم متى يفجرها، استشقت رائحة الكاز والذكريات وكيف تحول عمرها إلى لحظة بائسة، محمولاً على غبار الأوهام، وقفت تراقب بحذر نحيلة هزيلة وصامتة، ألقت نظرة على لبيد وهي تقلم أظافر الظنون بأسنانها، والصمت يعتقها بالحزن، وعظام نظراتها الأخرى على جسد طفلتها. انطلقت أصوات ضحكاتهم، عاد حيدر ودخل، فهم مطلبهم، اعتلت وجهه حمرة وامتلاً صدره غيظاً وحقدًا، بعدما أدرك رغبة أبيه بكل ما فيها من مرارة، مسك الألم بيد صوته.

لم يعر انتباهًا لحيدر، وطلب من لبيد أن يفتح الشباك؛ ليبدل الهواء في الغرفة. فتح الشباك الخشبي وصلاب يراقبه.

خرج لبيد خائفًا؛ ليأخذ هواءً نقيًا من الخارج، لكنّ أبيه صاح به أن يعود، دارت ضحكات رفاقه في الغرفة وبدأ صوت بكاء الطفلة يعلو في حين أن الدخان يملأ المكان، حلق بهم عاليًا على غيمة من سموم، سأله أحدهم عن اسمها، أعلمهم أنه لم يسميها بعد وأنه يفكر أن يتركها بلا اسم.

- اتركها بلا اسم، الحكومة تعرف من له اسم و من ليس له اسمًا.  
ونصحوه ضاحكين أن يتركها تختار اسمها بنفسها عندما تكبر.

- مستقبلها طيبة بارعة! هههههه

- هههههه

علت الضحكات أكثر وأكثر، وصلاب يسجل على ورقة انتزعها من إحدى دفاتر لبيد أرقام وحسابات اللعبة المقامرة، وأوراق اللعب تترامى على سجادة الصلاة، إنَّ الأجوبة ممزقة، و هذه الليلة ممزقة أيضًا، بأصوات ضحكاتهم التي لا تهدأ، أعلنوا منذ قدومهم أن صلاب هو الخاسر. وراهنوا على ذلك واثقين ومتأكدين، في صخب، تتلوى عذاب على قلق، حمل حيّان الطفلة بعد أن دفأتها عذاب، وخرج إلى الباحة، وقف بالقرب من لبيد المرتجف من البرد، تركهم يتبادلون نظرات الحسرة والصبر.

ازداد هطول المطر، وتكوّنت بقع كثيرة من الماء أمام الغرفة، اضطر إلى الدخول، ومعه لبيد خوفًا من المطر، جو الغرفة أصبح مقبولاً بعد أن أزيلت قطعة البلاستيك السوداء عن الشباك، أشعلت الريموس بعد أن طلب منها تحضير العشاء والشاي مرة أخرى، تمت لو أن في رأسها ألف عين؛ لتراقب كل شيء في وقت واحد، خائفة على طفلتها ولبيد وحيان وإمام وحيدر، وعلى البقرة، وعلى الريموس، وعلى الباب الخشبي شبه المتناسك، خائفة على كل شيء يمثل جزءًا من حياتها، وحتى على زوجها. صنعت العشاء بسرعة وجهزت الشاي، وضعت الطعام بجانبه، التفت إليها بسرعة وطلب منها أن تحضر مزيداً من الخبز، أخبرته أن الخبز نفذ.

بقيّ لها مؤونة من الألم بسبب أبوته، تجاهلها وطلب من لبيد أن يذهب إلى بقالة باقر ويحضر الخبز، خرج متثاقلاً من البيت يحاول أن يأخذ هواءً نقياً، وفي سره شتائم تهز سبات لسانه الصغير، شتائم لا يقدر على إيقافها، هواء أعمى، خرج من البيت، بخطى ثقيلة باتجاه الشارع. أحس أن الطريق تعتقل أقدامه، لا يعرف إلى أي اتجاه يسير، يميناً أم شمالاً.

يبحث عن اتجاه يقوده للموت وهو لم يكمل العاشرة من عمره، يبحث عن اتجاه يقول له اختر كيف وأين تموت؟ عاد وقد أضاء الأسف صمته وأخبر أباه وهو على الباب:

- بقالة باقر مغلقة والحي خالٍ لا يوجد فيه مكان لبيع الخبز.

فتح عيونه المحمّرة، وصرخ في وجهه غاضباً وأمره أن يبحث عن الخبز ويترك بيوت الحي بيتاً بيتاً، تعالت ضحكاتهم في الغرفة وأكدوا له أن الأولاد إذا لم يضربوا ويهانوا يصعب السيطرة عليهم، ومن يسيطر على ظلمهم الأبوي؟ استجاب حيدر لأبيه.

طلب من لبيد أن يدخل للغرفة، والجو يزداد برودة والرياح بدأت تشتد قسوة، أمام بيت جارهم وصديقه علقمة، طرق الباب وخرجت أم علقمة، أخبرها أنه يريد بعض أرغفة الخبز. صوت أسنانها تضرب بعضها البعض

من البرد، مع سعال قوي يخرج منها بصعوبة، بها رجفة مترهلة. بصعوبة أخبرته أنها لا تملك حتى قطعة خبز يابسة لأولادها.

عاد و جلس في باحة البيت على حجر صغير قرب شجرة الزيتون، بعد أن صار كالطعام الفاسد في الوجبات المفضلة لدى أبيه، يرمى في القمامة بكل سهولة، دموعه ملأت وجهه، ركبته تظهر من بنطاله الممزق، لم يبق إلا جسده تحت المجهر، ممزق النفس والملابس، سترته أصبحت بشكلها الجديد ورقة شبه بالية:

- هل هذا أبي؟

هل يحتاج الأطفال إلى واقٍ من الظن؟ لأن بعض الحقائق صعب التحقق منها، سحبت برودة الحجر الذي يجلس عليه ظهره، دخل يرتجف من البرد، عاد للغرفة، اقترب من أمه دسّ نفسه بقربها، وأخبرها أن عظامه تكاد تتكسر من البرد وأنه يوجد ضيق في صدره، احمرّت عيناها كالدم.

عاد حاملاً أرغفة الخبز وبه من أرغفة القهر ما يسد جوع العالم، بعد أن رضع من ضرر المرارة، وصبره عجينة الجوع المخبوزة، عاد يرتدي الخبز ليقدمه لهم، وضع الأرغفة أمامه. نظر إليها مبتسماً كأنها زغاريد، مسح وجهه من حبات المطر المتناثرة على جسده، خلع سترته يراقب بحذر ما يجري، جلس قرب منقل متواضع، في زاوية الغرفة. المطر في الخارج يزداد



شدة، صوته يزداد قوة، تكاد حبات المطر تحدث صوتاً كالرصاص. كأنها المعركة الحاسمة، وصوت الرعد شهوة تسقط جنين الريح على المنسية من الرهبة.

أنهى مع رفاقه العشاء، بعد أن تناولوا وجبات مبادئهم منتهية الصلاحية، وبدأوا بتناول الشاي وصلاب يوزع أوراق اللعب عليهم يرمون الورق، يعدون، يحسبون، وحلقات الدخان تتطاير من سجائرهم. تتعالى أحاديثهم تارةً، وتارةً ترتفع ضحكاتهم وتارةً، يصمت الجميع.

تناول حيدر أحد كتب لبيد لفتحه، ألقى نظرة يأس في الكتاب ثم أغلقه بعد أن صفعتة ذاكرته بصور أمه المتوفاة، لماذا لا يرشح النسيان من جدران الذاكرة؟ الجو يمطر استهتاراً داخل الغرفة، والصغار من شدة التعب استسلموا للنوم على تلك الأصوات وعلى رائحة الدخان والهواء البارد الذي يدخل من الشباك.

- الخمر!

ضحك الجميع وفتح أبو جروح الكيس الورقي وتناول كل واحد منهم زجاجة خمر، فتحوا الزجاجات وبدؤوا يشربون والريح تدخل من الباب وتخرج من الشباك وهم وخمرهم في ممر الريح، انسابت دموع عذاب، دموعها تقطر النبيذ للصبر لينسى أنه صبر، زادت من الأغطية على صغارها

وخصوصاً طفلتها الصغيرة، راقبتها بخوف بعد أن غطتها بالكامل. اقترب منها فجأة، أخبرها بنيتها للذهاب إلى بيت صديقه، ومعه لبيد لينام هناك ونصحها أن تذهب للنوم عند جارتها ماوية هي وأخته الصغيرة.

منعته، أصرّ على الخروج خوفاً على صحة أخيه، وطلب منها مرة أخرى أن تخرج معه إلى بيت أم علقمة بعد أن أحس أن بها لهاث مهجور يرتطم الخوف به، وجسدها في مهبّ الأمراض. رفضت الخروج مصممة على البقاء كأنها تنقب عن حتفها في هذه الليلة، والبرد يمزغ الموقد وبقايا الجمر بتواضع، خرج غاضباً، أودع لبيد عند صديقه علقمة واتجه إلى مكان البقرة خلف الغرفة.

اقترب منها، غارت قدماه في روثها، وضع يده على ظهرها حركها وتأكد أن الصفيح والألواح المعدنية الذي وضعه فوق غرفة الطين جيدة ولا تنفذ الماء منها. بدليل أن البقرة لم تصب بالبلل، تحسس الحبل الذي يربط البقرة.

مشى إلى نهايته، فك الحبل، خرج ومعه البقرة تسير وراءه. اطمئن أن أباه ورفاقه مشغولين في لعب الورق والقمار.

(البقرة يا حيدر، البقرة، البقرة، البقرة، يا حيدر، البقرة، البقرة، البقرة، البقرة التي تكفيهم حاجة السؤال. البقرة التي في ضرعها ما يسكن القلب، أما

ضرع أبوته لا يحمل إلا السموم. أب وجوده بين أفراد الأسرة هو وجود زائد، للمأزق فقط)

عند زاوية الباحة البعيدة عن الشباك الخلفي وقف ويده الحبل، سور يلتف حول الباحة؛ مبني من طابوق طيني قديم، مصنوع من الحجارة والطين والقش، رفع الحجر الأول ووضعه جانباً، أزال الثاني والثالث إلى أن أحدث ممراً صغيراً في السور الطيني، أسفل ركبته. خرج وأخرجها معه بصعوبة ممسكاً بحبلها، اتجه بها إلى المزارع القريبة، هناك هي في مأمن من نتائج القمار والورق والمغامرات الأبوية التي تفرغ شحنات الضياع التي يحملها التيار الأبوي، أما أن يربح أو يخسر، البقرة، البقرة يا حيدر، البقرة البقرة البقرة يا حيدر البقرة البقرة، عذاب أحست أن حيدر يدبر أمراً لا تعرفه، قلبها مشغول على أولادها، وعلى البقرة التي تراها تفلت منها مع نزول وصعود أوراق اللعب على السجادة الخضراء.

اختار مكاناً مناسباً، شجرة ليمون كبيرة ضرب جذعها من الأسفل لتجف ويتم كسرها وتحطيبها، في إحدى المزارع التي يعمل فيها أحد أصدقائه، ربط الحبل في جذع الشجرة، تأكد أنه مربوط بشكل جيد، وسار ناحية الغرفة المهجورة المليئة بالحطب.

الغرفة مبنية من الطين والخشب والقش مثلها مثل معظم البيوت في المنسية، وجدها مفتوحة كالعادة وملئمة بقطع الحطب الكبيرة والصغيرة، قطع ما زالت رائحة الأشجار بها. قطع متعفنة وقطع جافة وخضراء بعد أن أهلك الحطابون الشجر في المنسية، تقطع الشجرة ويجمع حطبها ثم يصنع منها الفحم أو تباع قطع الخشب ليشعلها الأهالي ويتدفئون بوساطتها.

المنسية بلا أشجار، بلا غطاء أخضر، إذا قتلت أشجارها.

جلس على قطعة خشبية، تحسسها وتكور على بعضه كأنه جنين في بطن أمه، وراح يحاول عصر نفسه لتحمل البرد، حتى الحطب سمع صوت عظامه، لم يكثرث، فهو خائف من هشاشة أبنية تكسر عظامه، أصبح كله عبارة عن كتله مبللة بالماء، والكره والحقد وصوت الظلام يطفأ طبيعته الإنسانية، في الهدوء، قارب الفجر على المجيء، وخرجت الريح من هدوء المنسية، خسر صلاب وخسر دوسر. ربح البقية وأمرهم أبو جروح أن يدفعوا المبلغ الذي اتفقوا عليه مع المبلغ السابق.

- ليس الآن!

راح يثرثر عن متطلبات البيت التي تمنعه من سداد دينه لهم، أخبرهم أن آخر مبلغ كان بحوزته دفعه ثمن دواء للطفلة، وثمن بعض الحاجيات



على المطر، أو منع نفسه من النزول حتى لا يلامسهم. كانت باحة البيت أشبه ببركة ماء كبيرة، حولها بقع صغيرة انتشرت من كثر المطر المنهمر، حذرهم من الماء والبقع والحفر الصغيرة، اقتربت من الجدار القريب من الباب الخشبي. تحملها زفرتها، وقفت كي تسمع ما يدور من حديث بين زوجها وأصدقائه، وتنتظر قدوم حيدر الذي لا تعلم إلى أين مضى، وماذا يدبر في جو بارد وماطر كهذا، بعد أن غصت بالمسافة التي بينها وبينهم، أكدوا على صلاب أن يحضر في مساء اليوم التالي ومعه المبلغ الذي اتفقوا عليه وأن يستعد للذهاب معهم إلى المزارع لسرقة محصول البرتقال والليمون، بعد الثانية فجرًا.

بعد الثانية فجرًا، يتوجهون إلى المزارع، وبعد أن يختاروا مزرعة لم تقطف ثمارها بعد، يأخذون معهم البك آب وإن لم يجدوا أحداً يذهب معهم، يسرقون أي بك آب يجدونه في طريقهم، ويتوجهون لقطف المحصول برفقة خمسة أو ستة أشخاص. بعدئذ ينقلون المحصول، بعد أن يطلقوا النار في الهواء لإخافة الحراس وقبل طلوع الشمس يتوجهون إلى سوق الخضار في المدينة يبيعون المحصول ويتقاسمون الثمن.

بصق صلاب على الأرض بعد أن رمى عقب سيجارته بالقرب من جذع شجرة الزيتون، المقطوعة كأنه يبصق صدقه وإصراره أمامهم مؤكداً أنه

سوف يدفع المبلغ، وبدأ يحلف بالطلاق؟؟؟ تأكيداً على صدق أقواله، قبل أن يذهب ويسمي ابنته. سأله أبو جروح عن سبب تأخره في تسمية الطفلة، سأله ليفتح باباً للسخرية، صلاب برر الموضوع لعدم تفرغه.

- سمها بقعة.

قال أبو جروح، نظراً لكثرة بقع الماء في باحة المنزل وهو يشير إلى البقع:

- إلا يحق لنا أن نسميها بقعة؟

وانطلقت أصوات ضحكاتهم المقرفة:

- ليكون لديك بقع في الخارج وبقعة في الداخل.

أبو جروح سكير مقامر، اغتصب ابنته أمام أمها بعد أن ربطها في البيت في ساعة الفجر؛ انتقاماً من أمها بعد أن تيسس المنكر على جسده الأبوي. من ثم داسها بحوافره، كانت في العشرين من عمرها، وصديقتها تنظر إلى الأم الملقاة على الأرض والحبل يلتف حول جسدها، وإلى ابنته الضحية. ضرب زوجته حتى أغمي عليها وربطها بحبل متين، قام بفعلته أمام صديقتها التي أحضرها إلى بيته ليشهدها على الانتقام؛ الذي يقوم به من زوجته وابنته تعبيراً عن حبه لها. أمضى عشر سنوات في السجن خرج، وعاد إلى القمار والخمرة والمخدرات، من ثم تزوج ليجدد جلده كالأفعى مرة أخرى. بعد خروجه من السجن، تزوج الثالثة، مكثت في بيته ثلاثة شهور، بعدئذٍ

طلبت الطلاق وهربت من بيته، أمسك أبو جروح طرف شاربه الأيمن وطلب من صلاب أن يسمي الطفلة (بقعة)، حتى يسامحه ويكف عن مطالبته بالدين. خرجوا ببطء؛ عصابة أبوية فرضت نفسها، بالقوة، وعده أبو جروح أنه إن ثبت هذا الاسم سيكف عن مطالبته بالدين المتراكم عليه، ابتسم بخبث للفكرة، وقال:

- موافق.

أشعلت شمعة، وأطلت برأسها من الباب بحذر، اطمأنت لخروجهم من باحة البيت إلى الشارع. أغلقت الشباك والباب الخشبي شبه المتناسك، وجلست قرب طفلتها، دخل بمزاج مبتور بعد أن غادر هواة جمع الفواجع الباحة، وطلب منها أن ترتب له الفراش استعداداً للنوم، تكلم معها كأنها خادمة، وطلب منها أن توقظه عند العاشرة صباحاً، محذراً إياها أن تنسأه نائماً بحجة أن لديه عمل لا يحتمل التأجيل.

تناولت غطاءً بعد أن رتبت له الفراش، رفعت سجادة الصلاة، طوتها ووضعتها جانباً بعد أن دنست ليلة كاملة. أفرغت منفضة السجائر من أعقاب السجائر ومن طمأنينتها وألقت زجاجات الخمر بالقرب من الحجر الذي تفرك به كعب قدميها، طلب منها أن تحضر القنديل ليخبأه محذراً إياها أن تشعل القنديل للأولاد. تناوله وجلس بالقرب من حقييته القديمة التي



يضع فيها أوراقه، تناول مجموعة من الأوراق وبدأ يبحث في الحقيبة راقبته بحسره وتجنبت أن تسأله لإحساسها أن في الأمر مصيبة أخرى من المصائب التي اعتاد أن يجلبها لهم، ابتسم بخبث عندما عثر على ما يريد، ملم بقية الأوراق وأخذ ما أراد من الأوراق وأعاد البقية إلى الحقيبة، أمرها أن تطفئ الشمع واستسلم بسرعة للنوم، لم تصدق أن الليلة انتهت، حمدت الله في سرها وطلبت أن يخلصها منه، أطفأت الشمع ومدت نفسها بجانب الطفلة تنتظر عودة حيدر وليد.

عاد لبيد ونهض الأولاد صباحاً، استغربوا أنها تغط في نوم عميق، أيقظها لبيد، قامت قلقة فيها خوف طازج، عرفت أن النوم سرقها. لم ترَ حيدر، سألت إخوته عنه، أكدوا لها أنه لم يعد، تذكرت حلب البقرة، أجمت الأمر لحين تحضير طعام الإفطار للأولاد، أشعلت البريموس، صنعت الشاي على عجل. ووضعت قليلاً من اللبن والزيتون للأولاد، وضعت قدر الماء الصغير على البريموس لتقوم بغسل الملابس واتجهت إلى البقرة؛ لتحلبها وتضع لها العلف والماء، وقفت مذعورة، أمام غرفة الطين؛ فهي لم تجد البقرة، صاحت بأعلى صوتها:

- سرقوها!

بلا وعي، اتجهت إليه، صدره يعلو ويهبط مع صوت شخيره، بجرأة كبيرة، شدته من كنفه، بعد أن أزال الغطاء عنه، وصاحت بأعلى صوتها طالبةً منه أن يرد البقرة إليها، البقرة التي أضاعها بسبب القمار، نهض مفزوعاً، سأها عن سبب غضبها، وعندما فهم أن البقرة ليست في مكانها وهو من تسبب في ضياعها وخسارتها، أزال بقية الأغطية عن جسده، ضربها بقدمه على ساقها، سقطت على الأرض ركلها برجله، سبها وسبّ البقرة واتجه إلى الحائط، سحب الحزام من البنطال، طواه وانهال عليها بالضرب. بألفاظ تطلبُ الخلاص، بصيحات عالية، تتلوى هاربة من الضربات تحت الحزام، بانث خطوط حمراء على وجهها ويديها، لم يتركها حتى تأكد أن كل شيء فيها قد تورم وتوعدها بقطع لسانها إن عاودت الكلام عنه أو عن أصدقائه.

علا خوار البقرة في باحة البيت، مما دفعه كالمجنون إلى الخارج، هي كأنها خارجة من معركة وصوت بكاء طفلتها يملأ الغرفة، ويجذب الانتباه لعفوية وجودها، سقط الحبل من يديه وسكت متشنجاً أمام المصائب التي تسرح له بداية يومه، أحس أنه أمام امرأة خارجة من جحيم مجهول، وقفت كصمود معذب بالصمت، أمام امرأة تعاني من كثرة الانكسارات والشظايا. زجاج صرختها جنون تعرى أمام انتظار المجهول، فهم كلاهما الأمر، بصق

على حيدر وبصق عليها، مسحت وجهها، وصبرت نفسها بأمنية عودة البقرة. ضرب إحدى الأغصية الخشبية الموجودة على الأواني المليئة بالماء، مدّ يده في الدلو غسل وجهه ورأسه ودخل إلى البيت، بصق على ابنته الغارقة في الصراخ قائلاً:

- أف إلى جهنم!

تناول البنطال لبسه ولبس السترة وعيناه صوب حقيبته التي تحفظ أوراقه، نظر صوب المرأة، تناولها، مرر أصابعه في شعره المجمع متأكداً من تسريحته بعد أن قامت القيامة على يديه تناول أوراقه من الحقيبة، دسّها في جيب بنطاله، انتعل حذاءه وسار خارجاً، مثل قبطان أبحر في رغبة صابون. اتجهت إلى طفلتها، رفعتها عن الأرض، قبلتها، ضمّتها، وتناولت غطاءً صغيراً غطت به الطفلة وخرجت تقطر لهاثاً. وضع حيدر البقرة في مكانها، وانحنى يثبت الحبل ويربطه جيداً، تناول دلو الماء، وضعه أمامها وفتح كيس العلف ووضع القليل منه وبعض الأعشاب، وقد أحسّ حينئذٍ بصداع شديد.

نظرت إليه، مسحت دموعها بمنديلها، غير مصدقة أن البقرة عادت إليها، اقترب منها، ثبتت طفلتها بشكل جيد، ومسحت بلطف على ظهر البقرة، غير مكرثة لما أصاب يديها من خطوط حمراء جراء ضربات الحزام المتلاحقة

على جسدها. تفقدت الحذاء القديم المعلق في عنق البقرة، والذي ثبتته بعنقها خشية السحر والحسد.

رفع كم قميصه للأعلى للبدء بحلب البقرة، لكنها أصرت على حلبها، وطلبت منه أن يحمل أخته لحين الانتهاء، تناول الجذع المقطوع، طوله حوالي نصف متر تقريباً، وضعه لها، جلست والطفلة بين يديه تحلب البقرة. تناولت دلو ماء قديم بجانبها، وضعته تحت ضرع البقرة بشكل مقلوب. وأحضر حيدر الإناء الذي تجمع به الحليب، تناولته ووضعته فوق الدلو المقلوب، وبدأت تضغط على ضرع البقرة بعد أن رفعت كم يديها. الحليب النازل في الإناء خيوط بيضاء تنسج عشقاً بينها وبين بقرتها، صوت ارتطام الحليب بالإناء يشعرها بالسعادة، بعد أن شبع منها الحزن، وتذهب هي في صمتها، شاردة الذهن، تاركةً صوت الحليب وحده يضرب الإناء ويضرب بعضه البعض.

يرتاح الإصغاء في أذنيها، وهي أسفل بقرتها وقد نسيت أوجاعها وضربات الحزام بعيون يملؤها الصبر. نظرت إلى حيدر وبنبرة لطيفة، طلبت منه أن يضع الطفلة في الداخل وينصرف إلى عمله، عادت إلى عملها صامته، وأثار الضرب بلونها الأحمر المتورم تنتشر على وجهها، لكن هذا لم يثبط من عزيمتها.

عبر لها حيدر عن قلقه من أبيه وعن جو البيت الذي لا يساعده على الحياة، ولا على العمل. لم تنطق بكلمة واحدة، تابعت عملها بهدوء، وهو يتطير من لفافة اهتمامها.

اعتذر منها لأنه لم يخبرها بإخفاء البقرة عن عيون أبيه ورفاقه، فقد أخفاها بدافع الخوف، صاحت الطفلة، صوت يثقب الروح، كأنها تريد أن تسمع النضج ليدخلها من باب الرؤيا، كمتعة الانتباه، تغريدة قمر، بل حماسة نديّة وضعت بيضها في حضرة الحواس، عرفت أنها جائعة ولا تعلم أن وجودها في الحياة أصبح الحاسة السادسة لجوع أبيها للتخاذل. لم يعد فمها يصلح للذوق، لم يعد أنفها يصلح للشمّ، أصبحت كلّ أجزاء جسدها مكاناً تجتمع فيه سموم أبوته، فمها الذي لم يعد قادراً على تذوق حنانه لأنه لم يهضم خبر مجيئها إلى الدنيا.

طلبت منه أن يضع بعض نقاط الماء المحلى بالسكر في فمها لحين الانتهاء من حلب البقرة، ويده على بطنه جراء مغص، ثمّ لمّ به من برد الليلة الفائتة، لكنّ براءة أخته تنسيه الألم وتبعده عن عزيمته.

وصل صلاب إلى دائرة الأحوال المدنية، ودفتر عائلة وشهادات ميلاد، نهر يلد شهوة الجريان وشهوة الطوفان، دخل بثقة رجل ومسؤولية أب وهو الهارب من وجه الأبوة، مسح المكان بعينه، ثم اتجه إلى أحد الموظفين، طلب

منه أن يساعده في استخراج شهادة ميلاد لطفلته، أعطاه الطلب وطلب منه أن يعبئ البيانات.

بسرعة وتهور عباً البيانات وسلّم الطلب للموظف الذي طلب منه أن يستريح، حين تجهيز المعاملة واستخراج شهادة الميلاد. اتجه إلى قاعة الانتظار، لم يجد كرسيّاً فارغاً للجلوس عليه، أخذ سيجارة من علبة السجائر، أشعلها وراح ينفث الدخان ويلعن كثرة المراجعين في سرّه، ما إن أنهى سيجارته حتّى نادى عليه الموظف، تفاجأ من طلب الموظف عندما أخبره أن المعاملة ينقصها طوابع وعليه أن يتأكد من اسم المولودة. خرج غاضباً، يدخن، يحمل الطلب بيده، وفي سره ألف شتيمة للدائرة، عاد بعد عشر دقائق واضعاً على الطلب الطوابع البريدية ورمى الطلب على مكتب الموظف الذي استغرب أمره، لم يعثر على كرسي للجلوس لكثرة المراجعين، أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانه، وعيونه تمسح كل صغيرة وكبيرة حوله.

نظر إلى الموظف، ودقق في ربطة عنقه خمرية اللون، خائفاً من رفض الدائرة منحه الاسم الذي اختاره، بقي منتظراً وأمامه تتجسد صورة ابنته التي ستخلصه من ديون القمار، تفاجأ بصوت الموظف كأنه قلق ينادي عليه قبل أن ينهي سيجارته هذه المرة، والأسئلة تنتظره في مكتب المدير، طلب منه

أن يدخل لمكتب مدير الدائرة لاستكمال شهادة الميلاد. دخل بعد أن ارتوى من فكرته، على المدير الذي نظر إليه وأخذ يقلب بحذر عقد الزواج الأول، والعقد الثاني ودفتر العائلة متأكداً من صحة المعلومات، يخشى أن يلامس الأوراق ليتحاشى دمامل الكلمات، نظر إليه من خلف نظارته السميقة موضعاً استغرابه من الاسم، وطلب منه أن يختار اسماً آخر لابنته، ازداد غضبه ورفض بشكل جنوني، أحس المدير بإجحاف إصراره، وعرف أنه لا بصيرة لديه، كيف قدم أوراق اعتماده كأب؟ ومن قبلها؟ قرر أن يحاول معه للمرة الأخيرة. سأله بعد أن قام عن كرسيه واقفاً أمامه وجهاً لوجه:

- هل أذنت في أذنهما عندما ولدت؟

رد بغضب بعد أن تنفس بغضب:

- أذنت في نظارتك!

أطلق سؤاله الثاني:

- هل عقت لها؟

ازداد غضبه، وبدا ككتلة مطاطية حمراء، أطلق وابلأ من التهديدات، فإن لم تقم الدائرة بإعطائه الاسم الذي وضعه في الطلب؛ سينفذها كلها، سكت المدير الذي لم يهضم أبوته وطلب منه أن يستريح في القاعة وعاد جالساً خلف مكتبه، في القاعة أخرج من جيبه علبة السجائر، أشعل سيجارة وهو

يشتم ويسب في سره الموظف وعذاب وحيدر والأولاد والحكومة وأنهى شتائمهم بشتم المدير واصفاً إياه بالأعمى.

اتجه إلى السوق، اشترى بعض الخضار الذابلة، دار حول الدوار الكبير، سائراً باتجاه السوق، وقف قرب المسجد بعد أن طلب منه أحد الأطفال المتسولين أن يعطيه قطعة من النقود، وبخه، هرب الطفل وبقي يراقبهم، يود معرفة كم من النقود يجمعون أو كم يجمع كل طفل في نهاية كل يوم.

كف بصره عن الأطفال المتسولين المنتشرين حول المسجد الكبير، وبين بائعي الخضار، وسار بخطوات نحو بائع ورق اليانصيب، لم يجده وجد ابنه الصغير، نظر إلى الأوراق وسأل عن ثمنها مستفسراً عن قيمة الجائزة الأولى وقيمة الثانية والثالثة حتى الأخيرة، أعطاه الطفل قيمة كل ورقة وهو ينفث دخان سيجارته بوجهه، وبعدئذٍ وضع يده والسيجارة فيها خلف ظهره. لم يكن يملك المال ليشتري اليانصيب؛ فاتجه إلى موقف الحافلات، القريب من الحمام التركي القديم، وهناك، وجد الطفل ماسح الأحذية وقد تلون وجهه وأصابه بالأصباغ التي استخدمها في عمله، وضع قدمه اليمنى أمامه على حامل الأحذية وطلب منه مسح الحذاء تناول الطفل قطعة قماش، استعملها، وبعدئذٍ وضع سائلاً أسود على الحذاء وبدأ يمسحه بالفرشاة.

- أريده أنظف من وجه أخيك الجالس، بجانبك!



ضحك الطفل وهو يمرر الفرشاة على الحذاء والجوارح لحن جاف على شفتيه، المتسولون؛ والطفل بائع أوراق اليانصيب، وماسح الأحذية، لا توجد مسافة بينهم، ليس لأنهم في سوق واحدة، هم متوحدون بالقهر، لأن البنية التحتية للأبوة هي الشارع، والشارع كفيهم الشرعي والوحيد. أنهى الطفل تنظيف الحذاء، رمى عليه صلاب عشرة قروش، وضعها الطفل في جيب بنطاله المهترىء، وأخذ يبحث عن زبون جديد، اتجه إلى مكان وقوف الحافلات الصغيرة صعد إلى الحافلة التي يقودها هاجم، جلس واضعاً ما اشتراه بين قدميه، من ثم استرخى كإثم عجوز، وطلب من هاجم أن ينزله في المنسية، هزّ هاجم رأسه ومد يده كالعادة يتحسس الأغراض داخل الكيس؛ لمعرفة ما بداخلها لأنها موضوعة بأكياس سوداء. فإذا كانت الأكياس شفافة أو يظهر ما بداخلها، يكتفي بالنظر إليها؛ ليعرف ما الأغراض التي بحوزة كل شخص يركب معه؟ سألته بخبث عما إذا كان لدى أصدقائه بضاعة لينقلها لهم ليلاً بحافلته الصغيرة؟ فهو الذي ينقل المحاصيل المسروقة ليلاً وفي الصباح يتجه بها إلى سوق الخضار والفواكة في المدينة، هو أكثر سائق يرغب في التعامل معه؛ لأن أغلب السائقين يرفضون نقل بضاعتهم لمعرفة أنهم مسروقة.

سلك هاجم طريقاً فرعية ولم يسلك الطريق العام، وأخبر الركاب بذلك بسبب وجود دورية للشرطة المرورية على الطريق العام، إنّ رخص قيادة السيارة منتهية ولم يقم بتجديدها، والإطارات شبه متهترئة، لذا اضطر إلى أن يسلك الطريق الفرعي؛ خوفاً من وقوعه بين أيدي الشرطة المتواجدين في الآن ذاته، ورخصة الأبوة لديه منتهية كذلك لكنه يسير في كل الشوارع الرئيسية والفرعية الضيقة والشاسعة.

في قرارة نفسه لم يهتم لأي طريق يسلك، أيها أقرب؟ أيها أبعد؟ كان همه الوحيد أن يصل إلى البيت، ثم يأكل وينام، ويلتقي أصدقاءه في المساء، علّه يربح بعض الدنانير.

توقف الباص في الشارع القريب من بيته، أعطى السائق أجرة، ونزل بشكله المكوّر يحمل كيسين أسودين، دخل محدثاً الرعب في نفسها، دفع الباب، نظر بغضب إليها وهي تلفّ الطفلة بأغظيتها، حرّك شاربه محمولا على كف الإعجاب بنفسه.

حركت رأسها باتجاهه، لم يعرها بالألّا، حاولت أن ترفع له يديها، ابتسمت وهي تنظر إليه.

فتحت فمها الخالي من الأسنان، لم يعرها أي اهتمام حركت رأسها للأعلى، تنظر إلى السقف وعادت تحرك رأسها الثقيل باتجاهه، كثفت من

ملاحمها لتساقط عليه دون جدوى. بشفتي خيال ونظرة حلم، قد لغى مواعيده ليصل إليه. فتحت فمها الخالي من الأسنان وهي تنظر إليه كأنها تودع نطقها لكلمة بابا، تودعها قبل أن يظهر لها أسنان وقبل أن تتعلم أي لغة أو أي حرف أو أي كلمة. أعطى الأوامر لزوجته أن تعد له الطعام بسرعة. اتجه للخارج، خلع حذاءه، رماه بجانب الطشت المقلوب وأمر حيدر أن يضع الحذاء تحته، بدّل ملابسه، وأعاد الأوراق إلى مكانها، وضع الحذاء في مكانه، ثم دخل يعتصر قلقًا.

قلق أيضًا، إلى أن امتلك جرأة أن يسأل عن اسم أخته، بحدة طلب منه أن يذهب للبقالة ويشتري له علبة سجائر، سمعت عذاب جواب زوجها، الذي كان أشبه بانفجار مززل، تمت لو أن السكين التي تقطع بها حبات البطاطا تدخل في أحشائه وتقطعه إربًا، لم يتحرك حيدر من مكانه، بقي مستغربًا وأشار إلى علبة سجائر نسيها أحد رفاقه، لم يكذب صدق أنها هناك فأخذها سريعًا، عاد، وتمتم قائلاً:

- السجائر سحري المفضل!

راقبته الطفلة بنظراتها كزورق روح سريع يحرق في خد الموسيقى، ابتسامة

طفلة لأبيها، هل ستكون الابتسامة بداية لودّ أبويّ؟

ظَلَّت مبتسمة، حركت يدها باتجاهه، كأنها تدعوه أن يحملها، زادت من مناغاتها، أشاح بوجهه عنها ينتظر الطعام، صرخ ضجراً من صراخ الطفلة، وهو يودّ لو ينتهي من طعامه ويغادر..

دخلت قطة غريبة مقطوعة الذيل، كيف دخلت البيت؟ وقفت أمام الباب، وجلست بالقرب من الريموس في الزاوية؛ تنشد الدفء.

وضعت الطعام أمام زوجها، طلب منها أن تحضر له حبة بصل، أحضرتها وهي تراقب طفلتها والقطة البائسة، ارتفع صوت الريموس، انتشرت رائحة الكاز في الغرفة واختلطت مع الروائح الأخرى، تأكدت من وجود رائحة الكاز على أصابعها بشمها، إنّ رائحة الدخان كانت كثيفة في اللحظة ذاتها.

أغمضت عيناها، رفض مناغاتها أو مداعبتها، أغمضت كل شيء فيها على رائحة الدخان والكاز التي ملأت الغرفة. ضمت نظراتها بحزن بعد أن تحولت إلى مصبّ لسموم الأب. عاد الأولاد من المدرسة، إنّ لبيد أول الواصلين، رمى حذاءه خارجاً دون أن يضعه تحت الطشت المقلوب، تفاجأ بجلوسه. رمى حقييته المدرسية شبه البالية على الأرض بالقرب من أخته، طلب من أمه أن تعجل بتحضير الطعام بعد أن علقت معدته بصنارة الجوع، وحيرة تدور في أنف رأسه، سأل نفسه، لماذا لم ينم؟ لماذا لم ينم؟

سألته عن أخويه أخبرها أنهم في طريق العودة للبيت، في حين أن أبيه ينظر إليه بقرف. دخلت ماوية، خلعت فردة حذائها ألقت التحية ودخلت، كان برفقتها أولادها السبعة، يمشون خلفها، والثامن تحمله، انقلبت الغرفة رأساً على عقب، فرحت عذاب بقدوم صديقتها، لكن صلاب اشتعل غيظاً منها ومن أطفالها ومن عذاب، طلبت من ماوية أن تشاركه الطعام، اعتذرت، وهب أطفالها حوله يشاركونه الأكل، مما زاد من غيظه، لكن أولاده لم يجرؤا على الاقتراب معهم، واستمرّ في الأكل.

قدمت لها الشاي، ووضعت طفلها بالقرب منها، أخذت ماوية الطفلة، حملتها وتفحصتها جيّداً، من ثمّ قبلتها، سألت عن اسمها، سكنت ولم تجبها، فوجهت السؤال لصلاب، أجاب بغضب:

- اسمها بقعة.

امتصت الجواب رغماً عنها، فتكاد تتلف أعصاب الجميع عندما تبكي الطفلة أو تقوم بأية حركة عفوية، لكن، لا حول لها ولا قوة، ولا ذنب لها إلا أنّها ولدت هنا، لم ينطق أحد بحرف، أخذت الطفلة من ماوية ومسحت على جبهتها، أحسّت أن حسرة ما تذوقها بقرف في بيت يقوده رجل أعمى قلبه، بكت وهي تنظر إلى ابنتها، بينما نظرات صلاب تحك القهر في قلوب الأسرة. طلب من حيدر أن يأخذ الطعام بعيداً عنه. ومدّ نفسه على فراشه ووضع

الأغطية فوقه وهياً نفسه للنوم طالباً من الأولاد عدم الصراخ. لم يطق الخبر الذي سمعه، قام قاصداً الباب وخرج، نهضت ماوية وأعلنت نيتها لزيارة صديقتها أم رشوان للاطمئنان على سلامة ابنها الراقد في المستشفى، والسؤال عن زوجها الذي اعتقلته الشرطة، وما إن تلفت بكلمة سجن حتى فتح عينيه كالمدعور، وانقلب رأساً على عقب، سألها عن سبب اعتقال الرجل، مرتبكاً وخائفاً، أخبرته القصة وهي واقفة كالنخلة وسط الغرفة، كان أبو رشوان مع الذين سرقوا صندوق التبرعات من المسجد، وزج في السجن إثر ذلك، لم ينطق بأي كلمة، حاول إخفاء دهشته شيئاً فشيئاً؛ كأنه شريك معهم، أشعل سيجارة ونفث دخانها باتجاه السقف. وقفت في باحة البيت، تنظر إلى شجرة الزيتون الضخمة؛ التي زرعتها أم صلاب قبل العدوان، تحديداً، قبل القصف الجوي بثلاث ساعات تقريباً، قبل أن تبدأ الغارات على المنسية.

طلبت من أحد أولادها أن ينزل عن الشجرة، طلبت منها عذاب أن تبقى معها أطول وقت ممكن، رفضت خائفة من أن يؤذي الأطفال أنفسهم بالشموع المشتعلة، خرجت من باحة البيت يتبعها أطفالها، كأنهم صغار بط يسيرون خلفها. تارة تلتفت لليمين تنادي من اتجه إلى اليمين وتارة تلتفت إلى

يسارها تنادي من اتجه إلى اليسار. وتارة تنظر إلى الخلف تصرخ على الأطفال بأن يتقدموا، وإن تقدموا أمامها بمسافة كبيرة تصرخ عليهم بأن لا يتعجلوا. مسح على ظهرها ونظر إليها كأنه يراها لأول مرة، لبي لها احتياجاتها، لحقه حيان سألته إن كان يريد المساعدة، طلب منه أن يتفقد الشمع ويشعل المزيد من الحطب لنقل الجمر إلى داخل الغرفة.

اتجه إلى المطبخ، مدّ يده إلى الطنجرة القديمة التي تخفي أمه الشموع فيها، تناولها. كان فيها أربع شمعات، أعاد الطنجرة مكانها. جدد لييد مطلبه بأن يعيدوا الكهرباء إلى البيت؛ حتى يتمكن من الدراسة ومشاهدة التلفاز بعد أن مل الحال.

أتى الغروب متألقاً في المنسية، بدأت الذاكرة تلتحج جفافها بعودة النسيان، بعد أن أعادت طلاء نفسها بالمطر، أحدث الغروب حالة من الفرح في أسرة أبو حيدر، لكنها فرحة مؤقتة، قد فرحوا لخروجه من البيت وللتخلص من لسانه الحاد، بعد أن خرج حاملاً دفتر العائلة وشهادة الميلاد في جيبه والسماء تمطر وترعد، يرضع حيان النار حطباً، فيتصاعد دخان كثيف إلى السماء، اتجه إلى الداخل، ليبدأ بتحضير دروسه، يتحدث درسه عن اليوم العالمي لمحو الأمية والذي يصادف الثامن من شهر كانون ثاني من كل عام، مهتمون بمحو الأمية؟ لماذا نهتم بالقراءة والكتابة؟ والأبوة تمحونا

قراءةً وكتابةً، حرائق، وجمل مفيدة، هل يلتقيان في هذا المنزل؟ حتى يعلمونا  
كتابة أسمائنا، وبعدئذٍ، أين تسكن أسمائنا؟ الحانات، الشوارع، الأكواخ،  
الثكنات، الأزقة، المزابل، أم عتمة البلاد؟

لماذا نتعلمهما؟ لنجيد كتابة أسماءنا ونوقع بمهارة على عقد الزوال أم على  
عقد النباح؟

دخل الغرفة وجدها مستيقظة، وضعها في حجره، أمسكت سبابة يده  
اليسرى وشدتها، لاحظ أن أظافر يدها ناعمة محمرة والخطوط التي على  
أصابعها خطوط وضعت لتحط عليها فقدتها لأبيها، داعبها حزينا وطلب  
من عذاب وإخوته أن ينادوها:  
- رقة.

إنّ ابتسامتها تفتح جماليات الحياة، تشفي الروح في الحلم، حط على ظلّ  
بعيد.

عاد للبيت دون أن يكتشف أحد فترة غيابه، فاجأ الجميع عندما دخل رافعاً  
بنطاله إلى أعلى ركبتيه وقدماه ترتجفان، وبخته على غيابه، أجاب كعادته بغير  
مبالاة مؤكداً لها أنه دائماً قريب من البيت، وألوان الضياع بدت واضحة فيه،  
بعد كثرة الأسئلة. اعترف أنه كان يجمع العلب المعدنية الفارغة والأحذية  
الممزقة ليبيعهما إلى الرجل الذي يأتي يوم السبت، يشتري من الأولاد بعض



الخرداوات، طلبت منه أن يغسل قدميه، وطلب من حيدر أن يكلم أحد الأشخاص، فهو ينادي أباه على مدخل البيت، لم يعرفه ولم يره من قبل، ليس من سكان المنسية، اقترب منه أكثر، سأله عن أبيه وبعد أن علم الرجل أن صلاب ليس موجودًا أعطاه مجموعة من الأوراق محفوظة في ظرف مغلق وطلب منه أن يعطيها لأبيه. بعد أن تناول الجميع طعام العشاء على ضوء الشموع وعاد كلٌّ إلى حقيبته المدرسية؛ ليراجعوا دروسهم، مدت يدها إلى قلب خزانة قديمة، تحتفظ فيها بملابس الطفلة، فأخذت منها قماش الحفظات.

طلب حيدر منها أن توقظه عند الفجر؛ فالعمل الشاق ينتظره في المزارع، هزت رأسها وطمأنته بأنها سوف توقظه قبل الصلاة، وذهبت لترتب الأواني والصحون والطناجر، ملأت البريموس بالكاز، من ثمّ وضعت الثياب المتسخة في الزاوية؛ تحضيراً لغسلها. في اليوم التالي، بدأ أطفالها يتسللون إلى النوم واحدًا تلو الآخر، ليبدأ أول المتسللين جمع كتبه ودفاتره. دسها في حقيبته المتهرئة ثم دس نفسه في الفراش وسحب الغطاء على جسمه وعذاب تلف له الكلام كالسندويشة طالبةً منه أن لا يزيل الغطاء عن جسمه في الليل، كانت هي آخر من استسلم للنوم بعد أن تفقدت الطفلة وأطفأت الشموع.

نادى قبل صلاة الفجر على أمه خائفاً، نهض حيدر ثم نهضت هي سألته عن سبب صراخه، أخبرها عن وجود صوت قوي يتحرك في الخزانة، أشعلت شمعتان واحدة ثبتها حيدر على صحن صغير واقترب من الخزانة وهو ينصت إلى ما في داخلها، سمع صوتاً لحركة داخلها، أشعل حيان شمعة أخرى، استيقظت الطفلة، لكنّ - كي تبث الطمأنينة في النفوس - فتحت الخزانة وبدأت بإخراج ما بداخلها، حاولت معرفة مصدر الصوت؛ فقد توقعت أن يكون فأراً في الداخل لأنها بين الحين والآخر أصبحت تلاحظ وجود ثقب في بعض الملابس.

جرذ كبير، دخل الخزانة، استغربت من وجوده، حاولت ضربه بعصا الكنسة، لكن إمام استعد لقتله بعد أن فشل في محاولة دحض الخوف والهلع في الغرفة، اقترب ليبد من الحائط البارد أكثر فأكثر، جلس القرفصاء وسحب إحدى الأغذية القريبة منه، وغطى جسمه، في حين أن عينيه غائرتين ترسلان الدموع بهدوء على وجهه، ضرب الجرذ، لم تكن إصابته قاتلة، هرب متجهاً إلى وسط الغرفة، ثم توقف فجأة، ألحقه بضربة أخرى فبقي في مكانه، كانت دهشة الصغار كبيرة عندما تمنعوا فيه، وشاهدوا حجمه الكبير، ثم أخرج حيدر الجرذ.

تزداد برودة الجو، ولم يتحرك لبيد من مكانه، بالغ في التحديق بعينه اللامعتين، ردت إلى ذاكرته حادثة فصل التيار الكهربائي، يوم جاء رجلان من هيئة الكهرباء وفصلا التيار عن البيت، يومئذ خرجوا خلفهم إلى أن وصلوا الشارع العام، والليله، خرجوا وراء الجرذ الميت مثلما شيعوا الضوء قبلاً، رمى الجرذ في زاوية الباحة بالقرب من الفتحة التي أحدثها حيدر ليلة إخفاء البقرة، اختلف حيان مع إمام على موعد دفنه الجرذ، دخل صلاب عليهم وهم يتجادلون، علم بالموضوع واشتد غضبه وبدأ صراخه، شتم الأولاد، شتم الأم، وسب الله. علا صراخه كأنه يصرخ على البلد بأكملها، دخلوا إلى الغرفة بسرعة، عندما سمع لبيد الصراخ دس نفسه في فراشه جيداً، مثل أنه نائم، كل أخذ مكانه في الفراش، دخل حيدر متناولاً إناء الحليب، واتجه إلى مكان البقرة، صراخه يزداد ويزداد، صرخت الطفلة مذعورة، علق بنطاله، ولسانه يتحرك في حلقه كراقصة، عذاب تجمع الشتائم المنهالة عليها وتنظر إلى طفلتها بألم في انتظار أن يسكت، أخبرته أن الجرذ دخل من تحت الباب بعد أن أصبح متأكلاً، ازداد غضبه، وشتائمه خرجت من كل اتجاه؛ يدعي أنهم سبب كل مصائبه وأنه ابتلى بهم، شتم الله، وحظه العاثر، أمر حيان أن يحضر له علبه السجائر من سترته المعلقة على الحائط، بعد أن جلس واضعاً كوعه الأيمن على الوسادة، يقرأ على ضوء

إحدى الشمعات بعد أن قرب منه ورقة بيضاء امتلأت بالأرقام، تخصّ لعبة القمار، أخبره حيان أن رجلاً غريباً أحضر له ظرف فيه أوراق، قال إنها مهمة، وهي مع حيدر، وطلب أن يحضروها، فتح لبيد حقييته شبه المتهرئة، أخرج منها الظرف، أعطاه لحيان الذي ناوله لأبيه، تناوله ويداه ترتجفان، اقترب أكثر من الشمعة وفتح الظرف بهدوء مرتج، كانت المفاجأة للجميع بأن شاهدوه يبتسم، ابتسامته نادرة الحدوث إذا كان جالساً مع أولاده، فلطالما كان عابساً.

تشجعت وسألته عن أمر الأوراق التي بين يديه، سمع السؤال وعاد العبوس إلى وجهه كأنه محشو بالغبثان قائلاً:

- تقرير طبي!

حصل على تقرير طبي يثبت أن لديه نسبة عجز تمكنه من الحصول على راتب شهري من صندوق المعونة، رتب له هذه العملية صديقه المقامر أبو جروح، رئيس لجنة التخاذل الأبوي مقابل أن يأخذ راتب أول ثلاثة شهور عند حصوله على المعونة الشهرية من الحكومة، عاد حيدر بعد أن أنهى حلب البقرة، لم يكثرث للموضوع بعد أن علم بالأمر، وبدأ يجهز نفسه للخروج إلى العمل في المزرعة، وضعت عذاب الطفلة مكانها، وقامت بتغطية الحليب الذي جمعه حيدر، ووضعت اللبن في الصحون التي ترسلها النسوة إليها في

كل مساءً، كلُّ حسب المبلغ الملقى في الصحن، بعدئذٍ أخرجت بنطالاً جديداً له، طلبت منه أن يقف عند الأواني المليئة بالماء مرتطمة بالشفقة عليه غسلت قدماه من الأعلى إلى الأسفل بالماء البارد القارص.

لبيد يزداد ارتجافاً، الجو باردٌ كجثمان طازج، أن يتطهّر من بوله، يريد أن يزيل هذا القلق عنه، جففته بنطاله، واتجهت إلى البقرة، تتفقد علفها وماءها وهي تلعن وتشتتم صلاب في سرها، بعد أن رفض ختان الأولاد أكثر من ألف مرة، كان في كل مرة يقدم حججه التي لا تنتهي، كأنه زوج لهذه الأعدار.

فرح بالأوراق والتقارير الطبية، قرأها أكثر من مرة، كلها تؤكد إصابته بأمراض عدة، إصابات في العمود الفقري، ومشاكل في عضلة القلب والشرايين، ومشاكل في عمل الكليتين، والأمراض التي لديه كفيلة بإعطائه راتباً شهرياً، دون أي مقابل أو جهد يقوم به، تشكّلت لديه فرصة لسداد ديون القمار، بعدما انتشر دود الرشوة في أجساد العباد وأوصال البلاد. لم ينم فرحاً بالتقارير، المزينة بالأختام والتواقيع، أخذ يشغل السيجارة تلو الأخرى، تارة يجلس على جنبه الأيمن وتارة على جنبه الأيسر، متكئاً على تراكم الهروب، وتارة تحك أصابع يديه رأسه بقوة.

استعد لبيد للذهاب إلى المدرسة، أحضر حذاءه وأخبر أمه أنه يريد حذاءً وجوارب جديدة؛ لأن حذاءه وجواربه باليان، أخبرها بعد أن أصبح الكلام مع أبيه من الممنوعات، سمع أبوه كلامه، شتمه وهدده بأن يلقي كتبه في النهر. على عجل، دسّ رجليه بالحذاء، بلا جوارب متخذًا من جلده جواربَ بعد أن اعتاد على لبس اليأس، غادر.

أنهى شرب الشاي بعد أن تناول إفطاره وأمرها أن تعد له شيئًا بعد أن شرب الإبريق الأول كاملاً.

امتلأت الغرفة بالدخان الصاعد، وتحطم صباح الأسرة كما تحطم طائرة منكوبة، والطفلة تسعل وتصرخ، تتقلب في مكانها كأنها تريد أن تتخلص من شيء، محرّكةً يديها للأعلى كأنهن غصنا حلم يتسلقا الهواء، فتحت النافذة، والباب على مصراعيه لتغير جو الغرفة. همّت بحمل الطفلة، ازداد غضبه وأمرها أن تترك الطفلة وتعجل في تحضير الشاي، ظهرت شمس الصباح ناعمة هادئة، حلمًا يقف على سنبله، يرى نفسه في قطرات الندى، أعطت دفنًا ناعمًا، وزعته على المكان؛ ومع الدفء تشجعت عذاب على استغلال الحرارة.

حضرت الشاي بسرعة ووضعت الحطب تحت قدر الماء الكبير وأشعلته بسكب قليل من الكاز على الحطب، وضعت طشت الغسيل بالقرب من

الحبل ودخلت إلى الغرفة، أحضرت الغربال واتجهت به إلى شجرة الزيتون الكبيرة، وضعته بين غصنين قويين على الشجرة بعد أن تأكدت من تثبيته جيداً على الشجرة، سقط على الأرض وابتل بالماء.

بدو الياasmine كأنها تتسلق الجدار الطيني، نفوح منها رائحة عطر خافت، وبعض أغصانها بدأت تلامس شجرة السيسبان القريبة منها، التي قطعها صلاب وعادت أغصانها تنبت من جديد.

أحضرت علبة صغيرة من مسحوق الغسيل، وضعته بالقرب من الطشت وهي تحمل أثقال الصباح بمعنويات مهمة، تنظر إلى صلاب وهو يرتب نفسه للخروج مستمتعا بشرب الشاي، سكبت الماء البارد في الطشت، وضعت قليلا من مسحوق الغسيل وجلست تغسل بالماء البارد، تغسل أيامها في نبض النسيان وتنتظر غليان الماء في القدر الكبير.

في مكتب صندوق المعونة الوطنية، مراجعون في داخل المبنى وخارجه، رجال ونساء، كبار وصغار، منهم المريض ومنهم المتمارض، بعض المراجعين قدموا على كرسي متحرك وبعضهم يستخدم العكازات أثناء المشي، وبعضهم بالكاد يقوى على المشي. منهم من غطت الجبائر أيديهم وأرجلهم، الوصول إلى مبنى مكتب الصندوق سهل وميسر، ومن يحتاج إلى صندوق المعونة الأبوية، كيف يصل؟ إلى أين يتجه؟

دخل بحجمه الكروي، اتجه إلى الموظف الذي رتب له الأمر مع صديقه  
أبي جروح، ناوله صور من عقدي الزواج وشهادة وفاة زوجته الأولى. صور  
عن دفتر العائلة وشهادات الميلاد مع التقارير الطبية، راجعها الموظف بسرعة  
وطلب منه أن يحضر شهادة عدم محكومية وبراءة ذمة، ويعود ثانية لاستكمال  
بقية الإجراءات.

وضعت الملابس المتسخة على جانبها الأيمن، وعلى يسارها، سطل ماء  
ساخن وآخر بارد جلست على طابوقة مقابل الطشت، خلطت الماء الساخن  
مع البارد؛ لتعادل الحرارة وبدأت تدعك الملابس وتفركها، وتعلو يديها  
رغوةً، غطت الطشت كأنها غيمة هبطت عليه، لكنّ في سرها أسراب من  
الشتائم تنزلها على زوجها وعلى الحال الذي أوصلهم إليها، في كل لحظة،  
نظرت إلى الرحي، أحست أنها تدور بها، وتثرها في الذاكرة، هباءً.  
يدور صلاب في السوق وبه شيء من الفرح، صادف ثلاثة من أصدقائه  
القدامى؛ لاعبي القمار، تحدث معهم قليلاً ثم اتجه إلى الأطفال ماسحي  
الأحذية، وصل عند أحدهم وفي يده سندويشة وفي رأسه نعاس، كادت أن  
تسقط من يده كأنه يغفو على جوع الطرقات.

خرج صوته من حنجرة مبتورة يكاد لا يقوى على الكلام حرك يده  
والفرشاة على حذاء صلاب بحركة شبه ميتة. خدّر حماقته، بعد أن لامس



شيئاً من السائل الأسود الذي ينظف به الأحذية جواربه، صاح في وجهه، لم يكثر، تركه ورفض أن يعطيه العشرة قروش عقاباً له. دخل صالون الحلاقة وهو يلقي نظره على الحجر الموضوع أسفل زاوية الباب ليمنعه من الانغلاق، خرج طفل يحمل صينية عليها أكواب فارغة، بقي طفل آخر لم يتجاوز عمره الحادية عشر، سأله إن كان يجيد الحلاقة أم لا، أجاب الطفل هازئاً رأسه بالإيجاب، جلس وقام الطفل بلف شرشف أبيض حول عنقه، بعد أن دقق النظر في شعر صلاب المتجعد والملتف كالحلقات الصغيرة فوق رأسه. دقق في المرآة متمعنا وجهه الدائري، أشعل سيجارة، وطلب من الطفل أن يحضر له المنفضة مستنشقا روح الشياطين في داخله، تناولها بسرعة وضعها أمامه وطلب منه أن يقصر من شعره قليلاً وأن يخلق له لحيته، وحط غارقاً في قناعته الدائمة بالمهارة في لعب القمار، خطواته في كبرياء الخسارة تكابر حيث يثبت لنفسه ولغيره أنه لاعب محترف وأن القمار موجوده في دمه، اختارها وأدمن عليها؛ لتكون الأسهل والأقرب إلى قلبه، لا تعب، ولا عناد، ولا عرق يتصبب من الجباه تحت أشعة الشمس الحارقة. بل اختار هذه اللعبة مع بقية نحاذلاته ليبقى في البيت يشتم ويصرخ ما دام هنالك أبناء وجدوا لخدمته وخدمة نزواته.

دخل إلى الباحة ثلاثة أولاد، كانت منشغلة بالغسيل، لكنها عرفتهم، أصدقاء لبيد، أخبروها بسقوط لبيد في إحدى الحفر المليئة بالماء بالقرب من المدرسة، دخلت مسرعة للداخل تأكدت أن الطفلة نائمة، ثبتت غطاء رأسها جيداً، وانطلقت مع الأولاد إلى المدرسة، وهي ترجو الله أن تكون الأمور على ما يرام. دخلت المدرسة مرتبكة. شاهدته مبتلا مرتجفاً، كشف المعلم عن ساقه المتورمة والمحمرة وطلب منها أن ترافقه إلى المستشفى لعرضه على الطبيب. اتجه إلى إحدى الحافلات بعد أن رأى مجموعة من رجال الشرطة أمام الفندق القديم، تم البلاغ عن طفل رضيع ملقى هناك، وقد حضرت الشرطة للتحقق من الأمر.

جلس بصعوبة في الحافلة، عرف أنه آخر راكب يصعد إليها، فرح لأنه لن ينتظر حين امتلاء الحافلة بالركاب، انطلقت الحافلة وهو يحاول ضبط جلسته في الكرسي الضيق، نظر السائق في المرآة الوسطى، القى نظره على الركاب، أخبرهم أنه سيسلك الطريق الفرعي المؤدي إلى المنسية بدلا من الطريق الرئيسي بسبب وقوع حادث سير على الشارع العام، فإن دوريات الشرطة تملأ الشارع.

شاهد الطبيب في المستشفى صور الأشعة أخبرهم أن القدم مصابة بكسر ويلزمه جبيرة لتثبيت الكسر مع الالتزام بالعلاج الموصوف من قبله.

أعطاه حقنة مسكن في العضل، فحص كريات الدم الحمراء كانت ضمن المعدل الطبيعي وكذلك فحص كريات الدم البيضاء، قلقْتُ على طفلتها، تكاد تكسرهما ترقوة القلق، والصبر جبيرة ملتفة حول عنقها.

دخل البيت ضاربا بابه بقدمه، لاحظ عدم وجودها في الغرفة ولم يرها عند كومة الغسيل، ظنها عند البقرة، خلع ملابسه، ونادى عليها بصوت مرتفع. استيقظت الطفلة على صوت صراخه، شتمها وشم عذاب وحيدر وحيان، دس نفسه في الفراش وسحب الغطاء ينتظر قدومها، مدخنا مثبتا نظره على السقف، انقلب الجو من صحو ومشمس إلى غائم، فجأة تلبدت الغيوم وازدادت سوادًا، بدت المنسية جثمان من حريق معلق في السماء.

بدت كثافة الغيوم السوداء المعلقة في السماء مخيفة، دقات قلبها تتسارع وتصيح في أعماقها؛ على ابنها وعلى ابنتها التي تركتها وحيدة، انهال المطر، ولحسن حظها وصلت البيت قبل أن تتبلل، دخل معلم المدرسة حاملاً لبيد و دخلت هي وراءه، كانت خطاها تشبه الأعدار الميتة. وضعه في الغرفة بعد أن دلته على مكان فراشه، حملت طفلتها على صدرها وعيناها تقطر دمعاً، طلب منها أن تغطيه جيداً، فوضعت عليه الأغطية المناسبة.

بدا المعلم ذو الشارب الرفيع والنظارة الطبية السمكية، طويل القامة، وقد ظهرت جلياً أربعة خواتم من الفضة، في أصابعه، برزت ثلاثة أقلام من

جيب سترته الزرقاء، وضع كيس الدواء بجانب لييد، واستأذن بالخروج بعد أن شكرته على مساعدته، طلب منها أن ترافقه للسيارة ليعطيها حقيته المدرسية، تبعته وهي تعيد تثبيت منديلها على رأسها جلس خلف المقود تناول الحقيبة من خلفه ناو لها لها وطلب منها أن تخبر زوجها بضرورة مراجعة مدير المدرسة بخصوص ابنها إمام، أدار محرك السيارة وانطلق دون أن يحدد لها السبب.

إن زوجها يكثر من الشخير، لم يستيقظ، دخل لييد والمعلم وعذاب الغرفة وبقي على حاله لم توقظه أصواتهم، ولا صوت الطفلة وصراخها، بقي مدفوناً في فراشه كخيمة مبتورة في الصحراء. غداً عطلة نهاية الأسبوع، يسقط المطر بين الفينة والأخرى، الأرض مبللة لا تكاد تجف، حفرٌ كثيرة امتلأت بالماء.

يزداد طول النباتات، بعد نزول المطر، والبرودة تشتد في المنسية ليلا، في قيلولة الألق، ينبت الاخضرار، ويزدان وجه البلد. ظهر قوس القزح، حاول الأطفال رمي الحجارة عليه، ليصيبوه، أو يكسروه، لتسيل منه الألوان، استمتع الكبار بالمشاهدة البديعة.

خرج إمام مع أصدقائه متجهين إلى المزارع يحملون المقاليع المصنوعة من أغصان الأشجار والمطاط، ليقذفوا الحصى على الطيور والبلابل، بدا الأطفال

كعشبٍ نحيف، وهم يحملون المقاليع، رغم الملابس الثقيلة التي تذرهم، يطلقون الحصى كأنها الرصاص، يرمون بها الشحرور، والحمام البري، والبلابل، إن البلابل مفضلة لديهم لكثرتها في فصل الشتاء، لم يفلح لبيد في اصطياد أي طائر رغم مهاراته في تسديد الحصى الصغيرة على الطيور.

اتجه قرب النهر مع بعض رفاقه، يلقون الحصى من مقاليعهم صوبه ليفسدوا الصيد على صيادي الأسماك، وأحياناً يقذفون الحجارة على خلايا النحل إذا عرفوا مكانها ويهربون. نادى عليه إحدى النسوة العائدات إلى بيوتهن، كنّ محملات بالبرتقال والليمون والخبيزة وبعض الأعشاب لأطعام الخراف والأرانب، إحداهنّ ناولته كيسًا كبيرًا جمعت به حبات الفطر، ويدها الأخرى وضعت ضمة كبيرة من الخبيزة بعد أن سألته عن اسم أمه، عرفت المرأة عذاب وسألته إن كانت حاملاً أم لا؟ ابتسمت وطلبت منه أن يوصل تحياتها إليها.

دخل بهدوء إلى البيت متجهًا إلى الغرفة، مدّ الغروب الأسود نفسه على المنسية، لاحظ نهوض أبيه من نومه، الغروب عند صلاب يعادل الفجر، ألقى نظرة على قدم لبيد بعينين محمرتين، صاح معلنا غضبه من العائلة التي لا تجر له إلا المشاكل، ظلّ إمام صامتًا، لم يعلق بكلمة واحدة بعد رؤيته ساق أخيه الملفوفة بالجبس الأبيض، ظلت نظرات العائلة تراقب حركة أبيهم،

اتجه إلى الباب بكل الكسور التي في أبوته، استند إلى حلق الباب برهة، ثم رفع إحدى الأغطية الخشبية، عن إحدى الأوعية المليئة بالماء، غسل وجهه ورأسه ودخل يبدل ملابسه التي أخذها عن المسار، وأمر عذاب أن تعد له الطعام والشاي، ازداد غيظه؛ عندما سمع اسم رقة، وصاح مواصلاً أخطاءه، وهو يطلب من لبيد إحضار منفضة السجائر:

- اسمها بقعة، أف!

وضعها إمام، أمامه وهو ينظر إلى قدم أخيه المكسورة، أشعل سيجارة، وسأل غاضباً:

- أف، أين الطعام؟

ثبت السيجارة بين شفتيه، وجرب جواربه الجديدة، لبس الأولى ثم الثانية، وحرك أصابع قدميه دلالة على الارتياح فيها، بعد أن ضاقت عليه كل الملابس الإنسانية، ورمى مقاسات كل الأمل للأسرة تختار منها ما يناسبها.

أنهى التدخين، حاثاً أولاده على ترك المدرسة والذهاب للعمل في المزارع، فهم حيدر ما يدور في رأسه، فهو يرغب في الاستيلاء على أموالهم، وأن يتدربوا على الموت البطيء تحت سطوته.

أشعل السيجارة الثانية، ويده ترتجف من شدة الغضب، شدد على أن موضوع الدراسة والمدارس لا يغني ولا يسمن من جوع، مطلقاً، زحفت تهديداته ونصائحه إلى أرض الغرفة، والأولاد ينظرون إليه على أنه حلم ميّت، كتاب الرياضيات ملقى أمام لبيد، حُميت قدمه، بالجبس، وأُنقذت، لكن أحلامه تركت بلا حماية يعبث بها الخذلان، والخيبة رسمت في نفسه كل زوايا التخاذل والزوايا الحادة للألم والزوايا المنفرجة للقهر.

وضعت أمامه الطعام وطلب حبة بصل كبيرة، أعطتها له واتجهت إلى البريموس لتكمل صنع الشاي، عاد يأمرهم بالذهاب إلى المزارع والعمل بها، وعيناه تنظران بغضب على قدم لبيد:

- أف، خذوا الحمار المكسور معكم!

قالها وهو يمضغ الطعام، بعدئذ أخذ قطعة من البصل دسها في فمه طالباً من عذاب أن تذهب للعمل كذلك مع الأولاد أو تجمع الحطب وتبيعه. دس لقم الطعام في فمه بسرعة وأرسل أوامره بسرعة لعذاب وحيدر، ارتدى ثيابه، وخرج ممتلئ البطن.

سلك الطريق المؤدية إلى الشارع ذاهباً إلى أصدقائه ليلعب القمار، بعد خروجه طلب حيدر من لبيد أن ينسى كل كلمة قالها أبوه له، قرر لبيد بخوف أن يرافق حيدر للعمل حتى لا يبقى في البيت تحت وابل شتائم أبيه،

يريد أن يرافقهم، يراقب العمال، يراقب ديدان الأرض، الضفادع، لا يريد اللعب، فقط يريد أن يرتاح من شتائم أبيه، تخلّى عن هوايته، عن أفراحه، عن مرحه، وأصبح يريد قضاء وقته بسلام.

وعده حيدر أن يشتري له حصّالة، نجبى له فيها كل أسبوع عشرة قروش، فرح بالفكرة، أضحكت فكرة أن يكون صلاب وحصّالة في غرفة واحدة أهمهم، لكنّها ختمت الموقف وهي تذكر حيدر بأخته، وطلبت منه أن يقوم بزيارتها ويطمئن عليها ويتفقد أحوالها.

رزق صلاب بمولودة من زوجته الأولى وبعدين رزق بحيدر، ماتت زوجته أثناء حملها بالمولود الثالث بعد أن كان يمنعها من زيارة الطبيب ومتابعة العلاج، إلى أن تمكن منها المرض وفارقت الحياة وهي حامل في شهرها الرابع، أخذ الخال ابنتهما بعد أن وافق صلاب أن يعطيها له شرط أن لا يتحمل أي أعباء، أخذها من أبيها بعد أن أدرك أن إهماله لها سوف يخسرهم الطفلة، ولم يحدث أن زارها بعد ذلك.

دخل إمام الغرفة بسرعة، رغم أن عمره قد تجاوز الثلاثة عشر إلا أنه لم يختن، وليد كذلك، فكلما طلبت عذاب من صلاب أن يختنهم، يقول:

– ما زالوا صغاراً!



فتح الباب بسرعة ودخل بهيئته المتهورة، ضرب صحن الماء والزيت برجله، والصحن الذي تضع فيه ماءً وبعض الزيت، ثم تضعه على سطح الماء مع قصاصة ورق عليها كتابات مبهمه، أرسلتها لها ماوية لتبعد السحر والعين عن البيت، انهالت عليه عذاب بالشتائم، تجاهلها ووقف ينظر إلى حيدر صامتاً، كأنه ينتظر نزع المسامير التي تثبت لسانه حتى لا يتكلم. جلس فجأة وأخبر حيدر أن أبا دلف يريد عمالاً وافدين، ذو بنية قوية حتى يقطعوا الأشجار ولا يريد صغار العمر، وطلب من حيدر أن يعمل في المزرعة نفسها، التي يعمل بها في عطلة نهاية الأسبوع.

يسكن سحيم على طرف إحدى المزارع المطلة على الشارع العام، قد أقام غرفته يقابلها عريش صنعه من القصب والقش وسعف النخيل، يعرف عنه أنه مدمن على الخمر والقمار، هجرته زوجته وثلاث من أبنائه الذكور، وبتته الوحيدة، زوجها لرجل جاوز عمره الخمسين، مقامر مثله بعد أن خسر معه في إحدى جولات القمار، كان عمرها أربعة عشر عاماً.

وجرت رياحه بما لا تشتهي سفن الأبناء، بعد أن حاولت زوجته أن تمنع زواجهما فلم تقدر، فهجرته واتجهت إلى المدينة لتعمل وتعيش مع أولادها، يعرف الجميع غرفته.

تربطه بصلاب صداقة قوية، فإنه يستدين منه المال مقابل التوقيع له، على شيكات بالإضافة إلى أنه لاعب قمار بارع وصلاب معجب به لدرجة الجنون.

انفجر لغم قديم تحت ساقه اليمنى وهو يصطاد السمك من النهر، نقلته إحدى دوريات الجيش إلى المستشفى، كانت تمر بالقرب من مكان الحادث مات بعد زواجه منها بشهرين، أصابت الغرغرينا قدمه وفارق الحياة، بروعة ترهق الوضوح نظر إلى النهر، أخذ نفسًا عميقًا أخرجه مبتسمًا ونظراته تلاطف سحره، خلع نعليه وبقي حافي الحلم في مكانه، يرتوي منه، جلس القرفصاء، فتح العلبة المعدنية تناول منها الطعام، وضعه في الصنارة الملقاة على جانبه، إن حركة الماء الذي تداعبه الأسماك يجعل النهر يغادر صمته المنغلق.

ألقى الطعام، تذكرها ونسي أن يتذكر أن الحب رشوة لاستساغة الحلم الغريب، والنهر ينفخ في حلمه، سحر يبطله الواقع، شيء يحرك الصنارة، علق بها حركها بقوة، شدّها إليه، لم يصطد شيئًا، وبقي الخيط ثابتًا في بطن النهر، ظنها سمكة كبيرة، فرح، تذكرها، وبه نسي أن يتسلل إلى الجنون، نسي أن يتذكر أن الحب ألوان من خزف الكذب، قرر أن يقترب ويهبط رغم وعورة الصدفة بين الطين والحجارة على الضفة. لم تكن المنسية وحدها مهبط

دمه، النهر كذلك كان مهبط روحه، وعندما يجد الحب مهبطاً؛ يصبح اسماً مستعاراً للخيبة، تقدم وخانه طين النهر، انفجر اللغم وتناثر طين النهر على وجهه وجسمه.

عقد زواجها الثاني كان مع صلاب، تزوجته وهي تنتظر السعادة، بعد أن أسقط عليها وإبلاً من الوعود، تزوجته وهي تتذكر مقولة أخيها الأكبر لأبيها عندما تقدم للزواج منها:

- زوجها للقرد الأسود ماذا تنتظر؟

حتى تكون حجة أمام أبيه، حرمها من الميراث لأنها متزوجة، قالت وهي تتخلص من الأمل الزائد؛ ولأن معطف الحق دوماً ممزق، صاحت:

- موافقة.

تنام، وتصحو، وتواصل الطريق إلى حتفها، وتصبح المقولة المنسوبة للصبر، "الجب يأتي مع الأيام"، حذاء تضرب به كل صباح ومساءً، الأطفال ذلك السرب الذي يأبى مفارقتها.

سلبها القلادة الذهبية، آخر ما بقي معها من زواجها الأول، أخفت الخاتم عن عيون أبيها، وبعد زواجها، أخذه منها بحجة ضيق الحال التي يمر بها، ووعدتها أن يشتري لها بدلاً عنه، أخذه وخسره في لعب القمار، وعندما سألته عن فعلته جرهما من شعرها ثم رفعها وألقى بها على الأرض بكل ما

أوتي من قوة وعنف، ثم أكمل على بقية جسدها بالعصا وبقيت علامات الضرب واضحة في ذاكرتها، لا تمحى أبداً.

اتخذ من جسدها شيئاً يضربه متى وكيفما يشاء، بحجة أنها تتهمه بالسرقه، شفع لها ظهور أعراض الحمل ودموعها تؤذّن في مدن عذابه، الحمل رحمها من ضربات الحزام التي يباغتها بها بين الحين والآخر وهو يتطاير غضباً بين الفينة والأخرى، عندما يتذكر موضوع الخاتم. ثلاث طعنات، اخترقن جسده، اثنتان في صدره وواحدة في بطنه، اتهم أبو جروح سحيم أنه غشه في لعب القمار، شتمه، ووصفه بالخنزير، ثار غضب سحيم، تناول السكين الملقاة في زاوية غرفته بين الأكواب والصحون وزجاجات الخمر الفارغة، وشبه الفارغة، بعدئذٍ أثث في صدره وبطنه الموت. نقل إلى المستشفى بعد أن أثاروا ضجة غريبة، أدخل غرفة العمليات وخضع لعملية جراحية عاجلة.

بدأت المنسية صباحها بخبر طعن أبي جروح، لم يدهش أو يستغرب الأهالي من الحدث، لأنهم معروفون بالفشل والعنف، وأوقفت الشرطة صلاب، ودوسر، وهاجم، على ذمة التحقيق.

شغلت عذاب بغسل الملابس، تمسح عرق جبهتها رغم برودة الجو بيدها المحمرة كأنها تزيل العرق عن ذاكرتها، وقد بدت يداها محمرتان من كثرة الدعك وفرك الملابس.

أخذت تتذكر جيداً ما غسلته وما بقي من دون غسيل، وما تود غسله في اليوم التالي، وملاقط الثياب ملقاة أمامها وفوقها حبل الغسيل الشاهد الوحيد على ذاكرتها.

لم تنفذ من ذاكرتها أي قطعة من الملابس ابتداءً من ملابس صلاب حتى ملابس طفلتها الصغيرة، جاءت ماوية إليها لتتنقل الخبر وهي خائفة، لم يكن ثمة أحد معها فالأبناء كانوا في العمل، أخبرتها أن صلاب لم يشترك في الجريمة وأخذته الشرطة واعتقلته كشاهد على الجريمة هو والبقية. وصل الخبر إلى المزارع والحقول المنتشرة في المنسية، اتجه أحدهم إلى المزارع عله يجد من بين العمال من يتبرع بالدم، بعد أن تجاهل أغلب الأهالي هذه الفكرة، بعد أن أسقى الدم لعائلته؛ فالجزء من جنس العمل.

أقرت له عملية جراحية ثانية لسوء حالته الصحية، وطلب تأمين كمية كبيرة من الدم بعد أن أصبح من الصعب الحصول على فصيلة دم تناسبه، الدم ذهب أحمر كما قالت العرب، ومن يرسل ذهبه الأحمر إلى أبي الجروح ليختلط مع كحول دمه.

عرف أن أباه سيلقى في السجن، دارت في رأسه ألف فكرة عن مصيره المجهول وعن النهاية التي سوف يؤول إليها صلاب، وقت يمتص نفسه في داخله، غادر المزرعة تاركًا العمل، يرافقه حيان، لكن إمام ولبيد وعلقمة بقوا في المزرعة ليعودوا بالبك آب الذي ينقل العمال إلى الحي، في الطريق الضيق إلى البيت بين المزارع انتشرت نباتات وأعشاب كثيرة على جانبي الطريق، ألوان مختلفة، انتفاضة لونية حطت على جوانب الطرقات تمتاز بالروعة.

عثر على عصا صغيرة أمامه رفعها عن الأرض، وراح يضرب بها الأعشاب وشجيرات توت العليق التي تحاذيه وهو يمشي، كانت المزارع وراءه كأنها شرنقة تلتف على رحيق الحقول كلها، وأغاني العمال لا تتوقف رأى الألوان وسحرها في الطبيعة فانتقلت إلى أرواحهم ونفوسهم، فالذين يؤمنون بالعمل هم من يؤمنون بالإبداع.

بقيتا تجلسان على قطع الطوب الرطب، أنهت عذاب نشر الملابس، وسبحة ماوية غائرة في حضانها تحرك حباتها في هدوء. تفاجأتا بدخول الأولاد إلى باحة البيت فهمت أن الأولاد وصلهم الخبر، خلع نعليه ودخل الغرفة، غسل حيان وجهه ورأسه ودخل يبدل ملابسه، أما حيدر اغتسل

وبدل ملابسه وأخبر عذاب أنه ذاهب إلى مركز الشرطة مع أخيه لرؤية أبيهم.

- لن يخرج من السجن.

صاح الضابط الذي يعج مكتبه بالمراجعين.

- القمار جريمة يعاقب عليها القانون.

خلف باب غرفة الحجز، يقف ومعه أصدقاؤه، ما إن التقت نظراته

بنظرات أبيه، صاح فجأة بصوته المعتاد وعينيه المحمرتين:

- أف أحضر لي السجائر.

لم يتكلم، تسمر في مكانه، زجره وأغلالاً تموت على مهلها في يد رغبته، خرج مسرعاً دون وعي وعاد يقف أمامه، أخرج ثلاث علب، تناولها وهو يشتم حيدر وعذاب والبيت والأولاد فقد توقع أن يرسل له أكثر من عشر علب، في البيت أخبر عذاب بما شاهده في مركز الشرطة وماذا قال الضابط لهم وهي جالسة تضع الطفلة في فراشها.

فجأة خرج صوت من مكبرات الصوت المثبتة على أسطح المساجد وعلى المآذن يعلن وفاة أبي جروح، فحدد وقت الدفن في ظهيرة اليوم التالي. في صبيحة اليوم التالي وضعت عذاب قدر الماء الصغير على البريموس لتسخينه، وغسل الملابس رغم أن معظم الملابس المعلقة لم تجف بسبب مطر

الليلة الفائتة، ظلّ ليبيد في فراشه، لم يذهب إلى المدرسة مع بداية الأسبوع، فقد انتابه ألم في قدمه المكسورة خرج عند سماع صوت أخته، نظر إلى الخارج، رأى أمه تغسل. صاح يخبرها أنها استيقظت وأن صرصارًا كبيرًا يقترب منها، طلبت منه حمل الطفلة وهو يصيح معلناً عدم معرفته حمل الأطفال الصغار خائفًا أن تسقط منه، أنهت الغسيل بسرعة واتجهت إلى الطفلة. أرضعتها، وتناولت بطاقة التطعيم استعدادًا لأخذها إلى العيادة لإعطائها مطعوم شلل الأطفال الثاني، وربما أكثر ما احتاجت لقاءًا يحميها من أبيها. بدلت حفاظاتها المبللة واتجهت إلى العيادة، تاركةً ليبيد وحده في البيت. في المركز الطبي تمت الموت، تمت أن تتجه كل الإبر إلى قلبها وتريحها من حياتها، لم يبقَ امرأة واحدة إلا وسألتها:

- لماذا قتل زوجك أبو جروح؟

فحصت الطبيبة الطفلة، وضعت قرص الساعة الطبية على صدرها ثم وضعت على بطنها، أمسكت أظافرها تنظر إليها بتمعن، راقبتها عذاب بحذر وتراقب سفر روحها إلى أظافر ابنتها، خرجت على عجل كأنها تريد أن تتخلص مما علق بها من أسئلة، وترميها على حافة الطريق وهي تلعن في سرها صلاب وأصدقاءه، هو أبوها وأخوها، واليوم الذي أنجبت فيه بعد



أن اعتادت على مانع الحمل الذي تأخذه دون أن يؤتي مفعوله، تأخذه  
وتنجب، كأنه في غيبوبة.

## الفصل الثاني

أمضى ثلاثة شهور في السجن خرج، وبعدئذٍ برأته المحكمة من جناية القتل، وسجن على لعب القمار هو ودوسر وهاجم. أمام حبل الغسيل الممتد بين شجرتي الزيتون وقفت تثبت الملابس المغسولة على الحبل في ظهيرة يوم ربيعي مشمس، جلست تمشط شعرها قرب حبل الغسيل بعد أن فركت كعبي رجليها بالحجر الأسود الصغير، تفاجأت به يدخل الحوش وهي تسحب المشط من شعرها، وعيونه تتقلب من الغضب، طال شعر لحيته. أربكها منظره واكتسح الخوف كل بدنهما، تجمد لسانها، لم تستطع أن تتكلم بأي كلمة، أحست نفسها، معلقة بالهواء مثل قطع الملابس المعلقة على الحبل. انتابها شعور واحد، كانت على يقين منه أنه سوف يضربها، شتمها وشمم الذات الإلهية قبل أن تحط قدماه في الغرفة، طلب منها أن تجهز له

الملابس ليستحتم. تفاجأ بعودة التيار الكهربائي إلى الغرفة، سألها بعنف عن موضوع الكهرباء، أجابته، وهي ترتجف:

- اسأل حيدر.

مناغات الطفلة لم تجلب انتباهه، ولم تنجح في الدخول إلى أذنيه أو قلبه عصفورة خرجت من قفص مفتوح، هل تعود؟

كفت عن المناغاة وطارت بعيداً عن عالمه، خرج القيء من فمها، حتى لامس رقبتها، مسحت لها فاهها، وصلاب يحك رأسه بقوة سائلاً عن حيدر. طلب منها أن تذهب للبقالة وتحضر له شفرة حلاقة، وضعت القدر الأسود على البريموس واتجهت صوب البقالة اشترت وعادت مسرعة، وجدته يجلس في باحة البيت على حجر متوسط الحجم ممسكا المرأة الدائرية الصغيرة بيده بعد أن تناول مقصاً، وأخذ يقص شعر لحيته ويشذب شاربه المخيف. زاد غضب لبيد ويأسه في المدرسة، ازداد كرهاً لنفسه وللمدرسة، لم يبق أحد إلا وزجره:

- أبوك مجرم، أنت ابن مجرم!

رغم غضبه الذي يرتديه، راح يتأمل ظليم الواقف أمام غرفة الطين المليئة بالتبن، لا يفارقها ولا يملّ الوقوف أمامها بلحيته المبعثرة الطويلة، ترك عيونه تراقب المارة، وخطاه تكمل الطريق إلى البيت، وما إن عاد إحساسه

بأنه سوف يبقى موقوفاً طيلة عمره في هذا المشهد الأبوي، يتتابه شيء من الفرح، كلما يتذكر غياب أبيه عن المنزل، فإنه يتمنى بشدة، أن يرتاح من مصائبه وكلامه الذي ينزل عليه بسبب أو بدون سبب.

تذكر العريش المقابل لغرفة سحيم، أكلته النيران ولا أحد يعرف من أشعلها، كلما مرت صورة بقاياها في باله؛ تخرج من نفسه أمنية أن لا يعود أبوه إلى هناك، وأن يظل كما هو، بقايا متفحمة.

أنهى قص لحيته وتشذيب شاربيه، تناول صحنًا بلاستيكيًا وضع فيه قطعة صابون صغيرة وحرك فوقها فرشاة الخلاقة بعد أن غمسها بالماء محدثًا رغوة بيضاء، مسح كامل وجهه بالصابون مرر شفرة الخلاقة على وجهه الذي بدأ فيه شيء من النحول رغم شكله الدائري الذي يشبه البرميل جلس على فراشة كالعادة بعد الخلاقة والاستحمام.

نظرات الطفلة تتجه إليه، حركات يديها ورأسه كلها موجهة إليه، لم يعرها أي انتباه، تتابعه براءة، تحاول دخول بلاطه، طردتها رائحة الدخان القوية، وهو ينتظر إعداد الطعام بفارغ الصبر، كان لبيد أول الواصلين إلى البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي، تفاجأ به جالسًا في مكانه، وتفاجأ بدوره من ملابس لبيد الجديدة، وحذاءه وحقييته، قبل أن يبادر في الكلام، أخبرته

زوجته كيف كدوا في العطلة المدرسية القصيرة في العمل حتى استطاعوا أن يؤمنوا ملابسهم هذه، وتسديد فواتير الماء والكهرباء.

هدده بكل ما أوتي من فسق، وضربه ضرباً مبرحاً، بُغية أن يعطوه ما بقي معهم من مال جمعوه، كان يدخن بعنف، طلبت عذاب من لبيد أن يطرد الناموسة التي حطت على جبهة طفلتها، عاد الناموس مع الربيع. مد نفسه على الفراش، وغط في نوم عميق كعادته السابقة، بدا لبيد أكثر حزناً، فتح التلفاز وبدأ ينظر إلى المسلسل الكرتوني، اقترب من أخته الصغيرة وهو يقول في سره:

- - لماذا عاد، لماذا؟

أسئلة أطلقها الأولاد حين رجعوا من المدرسة، لم يفرح أحد منهم بقدمه إلى البيت تمنوا أن يبقى في السجن، عاد حيدر في المساء، تفاجأ به كومة مغطاة نائمة أصابته الدهشة، عرف منها أنه خرج منذ ساعات، صحته جيدة وطبعه السيئ لم يتغير، لم يتعظ كما كان ينبغي له أن يفعل.

خروجه وخروج أصدقائه فاجأ المنسية التي اتفقت مع ساكنيها على

سؤال واحد:

- أين ستكون محطة الضياع القادمة.

في المساء وقف في باحة البيت ينظر إلى الأعلى تارة وإلى الأسفل تارة  
أخرى يميناً وشمالاً كأنه في حيرة من أمره يتسلى بالقلق.

أخذت عذاب تراقبه، هل سيقمى على حاله، حين إصابة السجن بالمرض  
والشفاء من المرض يجب استئصال المسجون، منه حتى يبقى السجن بصحة  
جيدة.

رائحة زهر الليمون والبرتقال تنتشر في المنسية بأحيائها مع هبوب الريح،  
ونسيمات الربيع اللطيفة، هل يستمتع بشم رائحة زهر الليمون؟ أم هل يشتم  
أنفه رائحة كوارث جديدة يحملها جبروته إلى الأسرة. عادت عذاب تراقبه،  
وفي حجرها طفلتها الصغيرة تبدو كزهرة أخطأت إطلاق عطرها. نادى على  
حيدر بأعلى صوته ركض إليه مندهشاً، انقبض قلب عذاب التي تعودت أن  
لا خير ولا فائدة من صرخاته، أو من أي شيء يصدر عنه، أخذ يلاعب  
شاربيه وهو يدخن، عرف حيدر ما كان قد أراده أبوه، بعدما حلق الاحمرار  
في عينيه، والخبث في وجهه ألغى ملامح الخير، وظلّ واقفاً ينتظر أن تخرج من  
جحر فمه كلماته السامة، صوّب نظراته مكان البقرة، لسعت حيدر فكرة أن  
يبيع أبوه البقرة، فإن فعلها سيسحذون الماء في الطرق.

- أترك العمل في المزارع!؟

عاد إلى حقييته يبحث عن شيء ما، لم تعرف عذاب عما يبحث، تحاشت أن تسأله قلب الحقيبة رأساً على عقب، وهي تراقبه بطرف عينها، تجاهله حيدر، أخرج كتاب اللغة العربية من حقيبة لبيد، تارة ينظر فيه، وتارة لا يبدي اهتماماً به. أعاد الأوراق وما استخرجه من الحقيبة تناول مغلف كبير، فتحه وأخذ منه دفتر العائلة، نظر إليه كأنه يشاهده لأول مرة، أعاده وتناول عقد الزواج، وأخذ أيضاً شهادة الميلاد، حيدر نظر إليها بدهشة كأنه حصل على براءة اختراع، أخرج جميع الأوراق التي في المغلف.

رأى عقد زواجه الأول والثاني، وشهادة وفاة أمه، حدّق بها كأنه يشاهدها لأول مرة في حياته، استغرب حيدر من تصرفاته، بدا كأنه تمثال أسطوري بني قبل آلاف السنين، منصوب على شهادات الميلاد، ودفتر العائلة، وعقدي الزواج، ثلاثة قواعد رفعت تمثاله الذكوري.

رتب الأوراق من ثم أعادها إلى المغلف وكذلك أعاد شهادة وفاة زوجته الأولى، من ثم عاد إلى فراشه بجسمه الكروي ألقى نظرة باتجاه الأولاد، باتجاه أسطورة الضياع التي بناها باسم العادات والتقاليد الذكورية، بعدما صنعت الذكورة من الدين وجبات سريعة التحضير، يدخل في مكوناتها فن الصمت، والهواء المشنوق بحبل خفة وزن الحياة الإنسانية. أشعل سيجارة، مد نفسه في الفراش ينظر إلى السقف والفحولة، قبلته الوحيدة بعد أن وبخ

حيدر وشمته، بالغبي والأهبل، وطلب منه أن يقتنع بأن العمل القادم سوف يؤمن لهم كل متطلبات الحياة دون الحاجة إلى العمل في المزارع وطلب منه أن يبحث عن فتاة حتى يزوجها له، طلب من حيدر أن يختار فتاة لديها وظيفة حكومية ليضمن راتبها له، ناصحاً له أنّ الزواج نصف الدين.

لكنه حتى هذه اللحظة بلا دين، ما هو هذا النصف إذاً؟ بعد أن صار الزواج شرفة حظ تطلّ على الهاوية، شرفة بنيت على رفرفة العري وأثت بحلم مشبع بالمسامير.

أخذ منه ديناراً وغادر المنزل وبقي في مكانه يعد الصدمات في ذاكرته عليها تكون كومة نصر تنقص من وزن التمزق في الروح.

اشترك حيدر مع صابر المصري وخان الباكستاني في صناعة الفحم، جمعوا كثيراً من الحطب، فهو متوفرٌ أمام إحدى المزارع. انفقوا على أن يجمع حيدر الحطب من المزارع، وصابر يضعها في أكوام كبيرة ليصنع منها الفحم الذي يرسلونه إلى المدينة مع خان لبيعه، وكان صلاب لا يعلم بأمر عمله الجديد هذا. فمن الحطب استخرجوا الفحم وباعوه.

بعد أن خرج من المنزل تمشى على مهله بهيئته المستديرة، في الشوارع كأنه جاء ليخبرها بخروجه من السجن، وها وهو بين أحضانها يحمل لها سلة



أعداره، منهم من شاهده وألقى التحية عليه، ومنهم من تجاهله، دار في القرية شارعًا شارعًا، وحارة حارة، ليخبرها بعودته.

عاد بفشله وهو الذي في مشيته يبدو كعمود فقري مكسور، رسم على فائض من العقم. سال على ميلاد سبابة وضعت بصمتها على المجاري الفارحة للروح، برودة جو الربيع ليلا جعلت صلاب يتباطأ في مشيته وأكثر اتزانًا في خطواته، كان منتشيا إلى حدّ هو نفسه لا يعرف إلى أين وصل به الانتشاء. انتابه إحساس وهو يمشي في شوارعها أنه شيء مخلوق، شيء جاء الألوان لأن يطير في سمائها، ويهبط متى تشاء بعد أن فشلت أجنحة الأبوة في الالتصاق به وبقت مخالب الذكورة عنوانه الرئيسي، نفاذ السجائر منه انتشله من حالة النشوة التي تسير معه، استهلك العلبة كاملة وهو يدور في شوارعها، اتجه إلى دكان على يمينه، دخلها وطلب علبة سجائر، باعها له الطفل فيها، علبة السجائر وخرج فاتحًا العلبة، سالكًا طريق المنزل، صادفه أبناء أخيه في الطريق، نادوا عليه مقربين منه:

- يا عم، يا عم

ضرب الأول على رجله، شتمه وشتّم أمه، هربا فزعًا منه.

أولاد أخيه، خمسة أطفال أشعلت نعومة الحياة، توفي والدهم أثناء محاولته سرقة إحدى البيوت في المدينة، سقط عن السور العالي للبيت وهو



تناول صحن شوربة العدس كاملاً لم يعلق أحد بل لا يقدر أن يعلق أحد أو يرد. جلس الإمام كالعادة صامتاً، ينظر إلى السقف تارة وإلى الحائط أخرى، الطفلة، سجن يجب أن يقضي به مدة طويلة ظلماً وافتراءً بعدما بشرته الأبوة بالشرد.

لم يعلق حيدر بأي كلمة، ينتظر صدمات وفواجع أبيه لتحل عليه بعد أن صارت الأسرة بكل أعمارها طفولة مبتورة.

إنّ حياة أبنائه هي المسافة بين أخطائه، يقع أحدهم بين الخطأ والآخر، إلى أن تقع الأسرة بكاملها.

بعد دخوله، أخذت تتلوى الطفلة كأنها ثعبان صغير، كان بطنها منتفحاً، احتارت أمها بأمرها، ومن صراخها وأرقها، توقف عن مضغ الطعام وتوقفت حركة شاربيه أيضاً، وطلب منها أن تسكت الطفلة لأنّه لا يطيق صراخ الأطفال.

وهم لا يطيقون أبوتك؟

أخبرته أنها مريضة، وأنها سوف تأخذها للطبيب صبيحة اليوم التالي، لم يعجب بكلامها ووصفها بالبقرة وطلب منها أن تدلك بطن الطفلة بالزيت. وضع لييد كتبه في حقيبتة بعد أن أنهى دراسته بكل يسر، وتخلص من رائحة الشموع إلا أن رائحة سجائر أبيه بقيت منتشرة في الغرفة، مع بقايا السجائر

التي أتلفت صدور الأسرة، كذلك في منفضة أبوتّه، مدّ يده في جيب بنطاله وطلب من حيدر أن يضع الخمسة قروش في الحصالة، رنت كلمة حصالة في أذنيه أحسّ أنّ هذه الكلمة رنيناً، بلحن شهّي لا يقدر على مقاومته. خبأت عذاب الحصالة فوق الخزانة، دلّه لبيد على مكانها:

- أف أين هي؟

أعاد السّؤال، لم يجبه أحدٌ، اقترب من لبيد الذي ارتعش خوفاً، شده إليه وصفعه، ثم شده من أذنيه وسار به باتجاه الحائط، ليضرب رأسه به. حاول حيدر سحبه منه بعد أن صارت أرواحهم عمالات يجاد التعامل والاتجار بها. صرخ على حيدر، عذاب شدّته واتجهت إلى الباحة، وهو يصيح:

- ستنام مع البقرة، أف!

أعطاها له، أخذها ووضعها على فراشه وهو يراقبهم يخرجون من الباب، جلس أسفل حبل الغسيل المعلق بين شجرتي الزيتون، يبكي واضعاً رأسه بين يديه، بعد أن نجح بإيجاد مساحة كافية ليعلن سطوته، تتم بصوت يرتعش:

- من الذي أخرجه من السجن؟

طفل خلف القضبان، يتحدّى سجانه في فوضى غامضة؛ لأن السجنان أب، هل يستسلم للسجان أب؟

وضعت عليه إيريق الشاي، تنظر إليه بطرف عينيها بقرف، وهو يدخل  
السكين الصغيرة، التي يحملها في جيبه إلى بطن الحصالة، أحدث شقاً عريضاً  
فيها، قسمها نصفين، وسقطت قطع النقود المعدنية منها. بعض سقط على  
الأرض، وبعضها سقط على قدميه وبين فخذيه، جمعها، وعدها باسترسال،  
قائلاً:

- ثلاثة دنانير وربيع.

كؤم قطع النقود بينهم، وبدأ يشرب الشاي ويدخن، بدأت علامات  
الرضا تزحف إلى معالم وجهه. سأها حيدر إن كانت تعرف شيئاً جديد عن  
العمل الذي لم يخبره عنه، نفت واكتفت بتوجيه الدعوات إلى الله أن يخلصها  
منه ويدها تثبتان المنديل على رأسها.

ما هو العمل القادم؟ سؤال الأسرة الذي يبحث عن إجابة، فقبل مقتل  
أبي جروح كانت القمار شغله الشاغل ليلاً، وبعد أن أصبحوا واحداً في  
السجن وواحدًا في القبر وآخر في البيت.  
أخذ النقود، واتجه إلى الأولاد بغضب، اختبأ ليبد وراء حيدر، صاح  
غاضباً:

- ستنام مع البقرة، يا ابن البقرة!

سار باتجاه البقرة، نظر إليها وعاد إلى فراشه، وعذاب تدعوا أن لا يلعب القمار هذه المرة ويخسر البقرة؛ فهي تزداد قلقاً يوماً بعد يوم، وقفت نحيلة تحيط خوف مثبت في الرَّعشة،

سينام لبيد خارج الغرفة، مع لذعات البرد التي لم تنته، مع دخول الربيع كيف سينام؟ كيف سيذهب غداً للمدرسة؟

جهاز حيدر مستلزمات أخيه المدرسية، ثم اتجه به إلى بيت صديقه علقمة، وجده أمام البيت جالساً ينظر إلى جذع شجرة التين، التي قطعها أبوه، وإلى حوض النعنع المملوء بزجاجات الخمر الفارغة. وإلى علب الحليب الفارغة المزروعة بالزنبق بعد أن سواها بالأرض، وافق علقمة أن ينام لبيد عندهم في البيت، وطلب منه أخذ الحيطه والحذر من أبيه، إذا رآه وهو سكران . عند آذان الفجر، كانت تجلس عذاب بقرب طفلتها التي ارتفعت حرارتها، ولم تفلح كمادات الماء التي وضعتها على جبهتها، وبعض المسكنات في خفض الحرارة.

استيقظ على صوت ارتطام روحه برغيف الخبز، يرتدي الفجر على خصره وملابسه معلقة في عرق الكدح، سأها عن حال أخته، وبدا حزيناً حينئذٍ، اتجه إلى دلو الماء خارجاً، صلّى واتجه إلى مكان البقرة، جلس على جذع الشجرة بعد أن وضع دلوّاً مقلوباً، لم يخرج هذا العمل اليومي من

الفضول حول العمل الذي أتى به والده، مرّ وجه أمه أمام عينيه، صلاب بدل أن يذهب للعمل جالس، نائم، وجهه يحترق الشمس.

أفكار كثيرة تدور في رأس حيدر، امتلاً إناء الحليب، ثم أحس أن أباه مستيقظ، رآه وهو يدخن، رغم أنه تعود على منظره لكن ما تزال الرهبة تحيطه. وضع إناء الحليب بالقرب من الريموس، منزعجا من رؤية أبيه، هل هو جائع؟ أم لديه عمل خاص؟ أم ينوي الصلاة؟

منذ أربعين عام لم يره أحد يصلي، صلى مرة واحدة قبل أن يتجه إلى السعودية، مخبراً عائلته أنه خارج لأداء فريضة العمرة مع أصدقائه، كانت الحقيقة أنهم ذهبوا لتهديب الدخان. بدل ملابسه بسرعة، واتجه إلى المزرعة التي يعمل بها صابر بتجميع الحطب وتقطيعه لصنع الفحم منه.

تمّ جمع كمية كبيرة من الحطب بعد أن شارف موسم تشذيب الأشجار على الانتهاء، يتمّ تقطيع العيدان والجذوع اليابسة والزائدة والأشجار الميتة والمريضة التي يتم إزالتها، تقطع الأشجار التي لا تثمر إلى قطع صغيرة بالمنشار.

عندما شاهد ابنه يخرج، جهز نفسه وانطلق دون أن يتناول إفطاره أو شايه، الأمر الذي أدهش زوجته.

يبدو مطمئنًا لكمية الحصرم الكبيرة التي يضرسها أولاده، جهزت الأولاد، تناولوا أظفارهم، ارتدى كلُّ حذائه، عاد لبيد من المدرسة متأخرًا، رأى مطحنة الشرائط والملابس القديمة، أزعجه صوتها القوي، فصاحبها رجل عجوز يصرخ على النسوة ويقلب الملابس البالية والقمصان والبناطيل القديمة التي تنوي النسوة طحنها، ثم تابع صراخه على ابنه الصغير الذي يأتي معه، وقف ثم انطلق إلى البيت.

قبل دخوله إلى المنزل، وجد القطة التي فقدت ذيلها أمام الباحة، بعد أن اختفت عن الأنظار لمدة طويلة، اقترب منها لم تتحرك أو تهرب مسح على ظهرها بيده، حملها ودخل بها باحة البيت، وضعها بالقرب من اللقن، لاحظ أباه يغط في نومه، أما بقية إخوته فكانوا بانتظار الغداء، أخبرهم بعودة القطة، فخرجوا لرؤيتها، وخرجت عذاب معهم مستغربة من عودتها، ثم رجعت لتجهز الطعام، فأعطى لبيد القطة قطعة من الخبز، أخبره حيان أن القطة لا تأكل الخبز، وسيغضب أبوه إن علم بالأمر.

زجرت أولادها وأمرتهم أن يتركوا القطة ويتجهوا لتناول طعام الغداء، اتجهوا إلى الغرفة وتركوا القطة خلفهم تراقب سحلية صغيرة تثبت جسدها على سور الباحة الطيني.



رمى المنشار جانباً، جلس على الأرض ينظر إلى الحطب، بدا جاهزاً للتفحيم، لكنّ ألماً مفاجئاً احتلّ ظهره، لكنه تجاهله.

ترك المزرعة وأخبر صابر أنه ذاهب للبيت ليرتاح، سار باتجاه الطريق العام، يستمر الألم بطريقة مخيفة، انتظر المركبة كي يذهب إلى الصيدلية، أوقف إحدى المركبات الصغيرة، متألماً كأنه يحمل الأرض على كتفه، أخبر الصيدلي بموضوع الألم المنتشر في ظهره. أدار الرجل ظهره ليتناول الدواء المناسب له، أحس أن كل هذه الأدوية لن تكفيه ليخفف ألمه. وصل البيت واستحم، أكل وشرب دواءه، ثمّ نام متمنياً أن يبقى أبوه نائماً؛ لا يزعجه، مع الغروب انطلقت صرخاته، يطلب الطعام والشاي وإسكات الطفلة. تجاهله حيدر محاولاً أخذ كمية كبيرة من النوم، لم ينجح. هناك ألم يصرع الجسد، لماذا لا يحس به أبوه؟

أزال الغطاء عنه وجلس على فراشه، أحس بنوع من التحسن، نظر إلى أمه، كانت تجلس قبالة البريموس ترش الملح على الطعام، بنطاله، نظر الكل إليه بخوف، فقد يخرج هذه الليلة للقمار أيضاً.

لا أحد يعرف بعد أن تناول العشاء وشرب الشاي، أمر لبيد أن يحضر له الحذاء ويمسحه استعداداً للخروج.

مع آذان الفجر استيقظوا، لم تشاهده، لم يعد، لم يكثرث كلّ منها. اتجه حيدر للخارج وعاد وصلى، من ثم انطلق يحلب البقرة، أيقظت الطفلة الجميع بصر اخها، لم تلاحظ عليها شيئاً، لم تبدُ عليها أعراض المرض، حملتها، ووضع حيدر إناء الحليب قرب الريموس وأخذ الطفلة من عذاب، ولبيد يسأل:

- أين هو؟

عرف أنه لم يعد، وطلب من أمه أن تصنع الشاي له، نامت بعد أن هزها حيدر، وضعها في مكانها وأخذ يستعد للخروج إلى مزرعته، جهزت الشاي والحليب المغلي، أعطت لبيد سندويشة، وطلبت منه توخي الحذر في المدرسة، صادفه عند باب باحة البيت، خارجاً إلى المدرسة. وبخه وشتمه دون سبب، ركض بسرعة خشية أن يضربه ولم يلتفت وراءه.

لم ينسّ معاملة صندوق المعونة، التي تقدم إليها قبل مقتل أبي جروح، قرر أن يعود للصندوق ليرى ما حل بأوراقه التي قدمها لهم، فتح الحقيبة السوداء القديمة، تناول منها عقدي الزواج ودفتر العائلة وشهادات الميلاد، خرج دون أن يطلب شيئاً. وانطلق يبحث عن مصدر للمال لينفقه على نزواته.

ألقي نظره على الجبل الشرقي وعلى البيوت المتناثرة أسف الجبل، بيوت من الطين، كانت نظراته تأكل المكان، حملته إلى أمل مجهول، أحس بنوع من

أنواع المتعة أمل ألقى به متعة لها طعم الفاكهة في فمه أزعجه الجوع، وكمن يطلب من قدميه أن توصلاه إلى هدفه، تغلب على الجوع، دخل متناسيا الجوع، اقترب من أحد الموظفين، شرح له الموضوع وهو يناوله عقدي الزواج ودفتر العائلة وشهادات الميلاد، ويروي ما مر به من ظروف. ادعى أن أحد أبنائه أدخل إلى إحدى مستشفيات العاصمة، واضطر أن يبقى معه لأكثر من ثلاثة شهور وانشغل عن موضوع المعاملة بموضوع مرض ابنه، غاب الموظف بين الملفات وهو ينظر إلى ورقة كتب عليها رقم من ستة خانات. تناول ملف أصفر اللون، قلبه ودققه، غاب مرة أخرى وعاد يطلب من صلاب أن يوقع على ورقة أحضرها معه وأخبره أن ينتظر الراتب الشهري من الصندوق. خرج فرحا، تمت الأمور كما أراد لها. وكل شيء في داخله يترحم على صديقه أبي جروح الذي حقق له مطلبه وغايته. استرخى في فراشه، وهو يدخن. وينطلق من قلبها دعوات أن تحمي الأسرة من شره. غط في نومه كالعادة، لكن الخوف لم يغادرها، وهي تتذكر كيف وصف أهلها زوجها، بالإنسان المثالي.

تزوجته لتكتشف بعد فترة، أن أغلب النساء لم يقبلن به كزوج بعد أن تقدم إليهن، بسبب سمعته، زوجها له حتى تؤخذ حصتها من الميراث،

أجبرت على القبول به زوجًا، وأجبر أبنائوه على القبول به أبا. إن رحمها يلد من بذرة عقيم، لا تدري كيف.

بدلت ملابس الطفلة واتجهت بها إلى المركز الطبي، حرارتها المرتفعة تنبئ بالحمى، أخبرتها الطبيبة أن الحرارة سببها ظهور الأسنان اللبنية.

\*\*\*

لم يكن هنالك أي إحصائية ثابتة أو رسمية بعدد المتضررين، لا أحد يعرف الحقيقة، الشيء المعروف أنهم سمحوا للطلاب بمغادرة المدارس والتوجه إلى بيوتهم، هزة أرضية ضربت المنطقة، بعض الأشياء المعلقة سقطت. منهم من أحس بحركة قدميه.

خرجت مذهولة من المركز الصحي، دهشت عندما رأت أولادها في الطريق، أخذتهم معها، تفاجأت عند وصولها الغرفة أنه مازال نائمًا؛ فقد توقعت أن تجده واقفًا في باحة البيت يدخن ويتنظر أحدًا كي يخدمه. ألقى نظرة في الغرفة، ونظرة سريعة على الأواني والطناجر والبريموس بعد أن وضعت الطفلة في مكانها وبجانبها كيس الدواء، وجدت الطنجرة الكبيرة ملقاة، لو يؤثر صوتها في الرجل النائم.

دخل ليبدو مرتبًا كأنه عائد إلى مكان غريب، طمأنته أن الهزة انتهت، غسلت قدميه وطلبت منه أن ينتظر الطعام، تناولوه وهم يتحدثون عن الهزة

بصوت منخفض، وتبادلوا الأخبار التي سمعوها وعن البيت الذي وقع وتهدّم، بيت من؟ لا أحد يعرف.

علّق حيان على الموضوع:

- عند ماوية الخبر اليقين.

لم نزل نتحدث عن الهزة، تذكرت البقرة وانطلقت إليها، وضعت لها الماء وزادت من كمية الأعشاب التي أمامها، تفقدت السقف المعدني المثبت فوقها ورجعت للغرفة. قابل صلاب رجلا أراده، لم يتأخر، عاد بسرعة بعدما انصرف الرجل، اتجه إلى الأواني، غسّل وجهه وبدل ملابسه.

لم يرضِ اليوم عذاب، واستغربت خروج صلاب وعودته المبكرة، انهالت تدعوا في سرها أن يحمي الأولاد والأسرة، من شر زوجها وما تبقى لا يهتمها، عند الغروب عاد صلاب، نزل من بك آب مكتوب عليه ( الفهد لتجارة الأعلاف).

كان يحمل كيسًا أسود، نزل واتجه إلى الغرفة وانطلق البك آب بسرعة، تصادف مع دخول حيدر الغرفة، لونه أسود كحاله، بعد أن قضى يوماً كاملاً بعمله في الفحم.

دخل الغرفة مسرعًا، اتجه إلى الزاوية القريبة من فراشه، وضع الكيس الأسود في الزاوية، ووضع بجانبه عصًا خشبية وقام برمي الأغصان على

الكيس الأسود حتى اختفى الكيس وأصبحت الزاوية زاوية من الأغطية. إنَّ الأولاد مجتمعون حول التلفاز يشاهدون فلم ( الرسالة )، أغلق التلفاز بغضب وحذر الأولاد وعذاب من الاقتراب من الزاوية أو العبث بالكيس الأسود.

جلس بكروبته على فراشه كأنه يفرغ شحنة ضياع جديدة في الأسرة، أشعل سيجارة وطلب منفضة السجائر وكوباً من الشاي. نظر إلى زاوية الغرفة، اغتسل وجلس ينتظر الطعام، كان يرى في عيني أبيه كلاماً له أول وليس له آخر، كلاماً يعنيه وحده.

أخذت تعدّ العشاء، وأسئلة لا حصر لها تأخذ مكانا في رأسها، عن الكيس المحظور؛ الذي قلب حالها رأساً على عقب. ولم تعد الهزة حدثاً مهماً، خرج ينظر إلى السماء، أمسك طرف شاربه بأصابع يده اليمنى ورمى السيجارة، وضع كلتا يديه خلف ظهره متجهاً إلى الغرفة بخطوات بطيئة، شغلت العائلة بأمر الكيس، ولا يستطيع أحد توجيه الأسئلة، جلس على فراشه أطفأ سيجارته وأشعل أخرى بعد أن عد السجائر المتبقية.

ألقي نظره على الأغطية، ثم حوّل نظره إلى الباب، بكت الطفلة ولم يكثرث بها كعادته، اقترب منها ليبدو، وأزال الناموسة عن جبينها؛ الذي عرف اليتيم قبل الناموس.

أخذت أسنانها تنمو، مما أثار اهتمام الأولاد، وجعلهم يحشون أصابعهم في فمها. لازمتها أمها بالكادات، وهددهم إن لم يسكتوها بأنه سيضعها على روث البقرة.

أنهى طعامه، من ثم أكمله حيدر، وشرب الشاي مستمتعاً برائحة النعنع، ومثيراً فضوله حول الكيس.

بين يديها بنطال إمام تقلبه وتتمعن فيه، رتقته، لكنها توقفت حين سمعت صوتاً ينادي، كان فرغلي؛ العامل الذي يعمل معه في صناعة الفحم، سأله خائفاً عما به، علم أن صابر وقع في كومة الحطب المشتعلة ونقل إلى المستشفى.

ما إن وصلا المستشفى حتى علموا بوفاته، بعد أن جمع كمية كبيرة من الحطب جاعلاً منها شكل مخروط، غطاها بالطين والتراب، وأشعل النار في داخلها، أخذ يراقب الحطب، بعدئذٍ لاحظ فتحة كبيرة قريبة من قمة المخروط، حاول الوصول إليها لإغلاقها، سقط السلم، وسقط صابر في النار.

عاد متأخراً إلى البيت، تفاجأ به يجلس على قطعة الطوب، المستخدمة عند غسل الملابس، ظن أنه يريد غسل شيءٍ ما:

- لا يفعلها، ما الأمر؟! -

قطع غرابة الموقف، عندما حدثه عن موت صديقه، أشعل سيجارة،  
وقال هازئاً:

- أف إلى جهنم، أنت وهو!

لا تنام وإن تظاهرت بذلك، سمعت حيدر يتحدث إلى أبيه، اطمأنت إلى  
عودته، وتمنت أن تعرف سبب تأخره، دخل الغرفة وتفاجأت بدخوله معه،  
تحاشت أن تسأله، خلع ملابسه ونام، ونام أبوه، تحسّر لبيد على نقوده التي  
ذهبت سدى، بعد أن قطعها نصفين، اقترب موعد التسجيل للرحلة  
المدرسية وكان عليه أن يدفع، لم يكن أمامه إلا أن يطلب من حيدر المال،  
لكنه قرر أن يسترد نقوده بنفسه.

عند الفجر، ستكون العملية، تأكد من نوم أبيه، فتش البنطال جيّداً، لكنه  
لم يجد شيئاً، عاد إلى فراشه خائباً، أحس نفسه يسقط من علو عندما دس  
نفسه تحت الغطاء، كانت أمه تراقبه، من لحظة قيامه إلى لحظة عودته إلى  
فراشه، عرفت أن ابنها يبحث عن النقود، وراح يبحث في جيوب أبيه،  
كاسراً القهر طفولته الحزينة.

أذان الفجر، نهضت، وأيقظت حيدر، اتجه خارجاً، اغتسل وتوضأ، صلّى  
الفجر، انطلق إلى مكان البقرة حاملاً إناء الحليب، جلس على جذع الشجرة  
المقطوع، بدأ بحلب البقرة، لحقته بهيئتها الجنائزية وبجسد يمطر حيرة،



سألته عن سبب تأخره، أخبرها بوفاة صديقه، وأخبرته عما فعله لبيد بدورها، لكنه ما لبث حتى أطلق ضحكة خفيفة أثار استغرابها، سألته عن سبب ضحكته. أخبرها أن المحفظة عندما تكون فارغة، تكون موجودة في البنطال المعلق. أما إذا كان فيها شيء، تكون تحت رأسه نائمة معه.

حلب البقرة، وفكر بشراء أربع دجاجات وديك، حملت دلو الحليب ودخلت به، فاجأها صلاب وطلب منها طلبه المعتاد، وضعت الإبريق على الريموس، وراحت تسكب اللبن في الصحون التي ترسلها لها النسوة مساء كل يوم.

انطلق بعد أن اغتسل، ذهب إلى المدرسة دون أن يحدث أحدًا.

- ولدت من ذكر ولم أولد من أب، أين هو أبي؟ من هو؟

بعثت له أمه سندويشته مع إمام، على مسمع أبيه طلب من أمه أن تعطيه ثمن علب ألوان وقطعة كرتون بيضاء يرسم عليها، حتى يشارك في مسابقة للرسم تنظمها المدرسة. لم تعلق بشيء، لكنها تفاجأت بصراخه الحاد ينطلق، شتمه وتوعده بالضرب المبرح حتى ينسى الرسم والمدرسة، كأب له الحق بتعذيب المهوبة وجلد التفوق وإبعاد أولاده عنها، هدد وتوعد، لا يريد من أحد أن يهرب من واقعه، حتى إلى الخيال، هو من يغمس بيده، ويقتل بيده، ويضرب بيده.

خرج من باحة المنزل وسلك الشارع متجهاً إلى المدرسة، كالعادة لا يتكلم إن أعطوه أو لم يعطوه، لم يخبر أباه أو أمه أن المدير يريد ولي أمره قبل نهاية الأسبوع في المدرسة، بعد أن ضرب أحد الطلاب على رأسه وكسر الطباشير، متحديا المعلم. تفاجأ بسيارتين للشرطة تقفان أمام المدرسة وأعداد كبيرة من رجال الشرطة، حيث بدأوا التحقيق في الأمر، لكن سرعان ما انكشف اللغز. فقد رمى داغر قدم ابنه التي بترت بعد حادث السير، في ساحة المدرسة ولم يدفنها.

غسل رأسه، وهمّ بتناول الطعام وشرب الشاي، لبس ملابسه وغادر البيت، دون أن يعلم أحد وجهته، غلت بعض الماء وأخذت تفكر، وقف هدهد على الأغصان ودخل أفكارها، لكنها تفاجأت بقدوم ماوية، ابتسمت واستقبلتها بحفاوة.

بعدئذٍ، أخذت ماوية تقرأ فنجان عذاب، انتظرت برهة من الوقت وهي تتحدث عن سوء الحظ الذي يلازمها. أعادت قلب فنجان القهوة كما كان رفعتة ونظرت في داخله، صممت حتى أحست أنها لن تعود للكلام، وضعت الفنجان حيث كان على الأرض وقالت:

– سيسجن زوجك مرة أخرى!

ثم تجاذبن الحديث حول الأخبار، أكملتا بناء القن، يتسع لعشرة دجاجات حسب تقديرات ماوية له، وأكملن حديثهن، همست في أذن عذاب أن زوجها يحتفظ بمسدس أبي جروح، كيف وصل إليه؟ لا أحد يعلم، ويبحث عن شخص يشتريه منه، من ثم تابعت قص الأخبار. بعد أن أنهتيا فك حبات البامية الجافة وغليها بالماء، صمتت قليلاً تنظر إلى القن كأنها ظل ذاكرة على صوتها ترمم الحيرة بطنين الوحدة، لكن عذاب ظلت صامتة طوال الوقت.

أخذت عائلة أبي جروح الفدية، أخذ النقود أخاه أكلا حق زوجته وأولاده، بعد عملية نصب قدرة. بعدئذٍ قام اثنان من أبنائها بسرقة بك آب، وضعوا في السجن وتركت الأم تلعن حظّها. كشفت ماوية على الطفلة، وتفحصتها، وفي هذه الأثناء دخل رجل يبحث عن الأب، أخبرته أنه ليس في البيت وقد خرج منذ الصباح، كان غريباً بحيث لم يتعرفا عليه.

أحضر حيدر الدجاجات، أخذ ماوية تسأله:

- كم ثمن الدجاجات؟

- ممن اشتريتها؟

- ههههههههه.

- كيف حال زوجته؟

عاد غاضباً، ودخل إلى الغرفة. من ثم غادرت ماوية. ورجع الأولاد من المدرسة، فرحوا بالدجاجات، ونقلوا خبر حيز إمام في المدرسة للأهل، ذهب ليعرف ما المشكلة؛ فعرف أن أخاه ضرب أحد الطلاب على عينه وكاد أن يفقأها، وقع على تعهد بعدم تكرار التصرف. قاطع أحد المعلمين المدير موجهاً الكلام إلى حيدر يخبره أن إمام بحاجة إلى مزيد من الاهتمام والرعاية بعد أن بدأ تحصيله الدراسي يضعف بالتدريج، وطلب منه أن يعطوه انتباهاً أكثر من اللازم، خشية أن يفصل من المدرسة.

- اذهب وحدك إلى البيت.

وصل، ورأى أن أباه قد ذبح دجاجة من الدجاجات، غضب غضباً شديداً، رمى الحقيبة ولم يعلق بأي كلمة عندما رأى رجلاً موشوماً يجلس في الغرفة، قال صلاب موجهاً الكلام إلى حيدر:

- صديقي سرحال.

تخمن حيدر طبيعة هذا الرجل تبعاً لشكله المريب، دارت حول نفسها ألف دورة من لحظة قدوم الرجل، طبخت الدجاجة وأكثرت من بصلها حسب أوامر زوجها، وقدمت الطعام للضيف.

جاءتهم امرأة متسولة لم ترها عذاب من قبل، جلست قرب الطفلة، وطلبت من عذاب أن يعطيها بعض النقود أو بعض الخضراوات، اعتذرت عن عدم امتلاكها شيء تقدمه لها؛ فخرجت.

تفاجأ حيدر من الحديث الذي دار بينهما، عرف أن أباه تعرف على سرحال في السجن، حاول أن يعرف لماذا كان هناك، لم تأتِ الفرصة المواتية. في الخارج، كان يحاول لبيد خلع سنّه، وبعدهما نجح، طلب منه أخوه أن يقف مقابلاً للشمس ويرميه عليها، وقف فرحاً باتجاه الشمس، وهو يقول:

- يا شمس خذي سن الحمار، وأعطيني سن الغزال.

شربا الشاي، وطلب منه رؤية الجهاز حتى يتأكد من فحصه.

لم يبق في البيت إلا الثوم والطحين وصراخه.

تفاجأ من كلمة جهاز، صلاب عاد إلى زاوية الغرفة، وأحضره، صندوق أخضر اللون مع أسلاك، وذراع معدنية، تفحصه بحذر، ضغط على الأزرار، بعدئذ أصبح عبارة عن قطعتين بالحجم نفسه.

دخل إمام، وقد بدا متسحّخاً، لحقته أمه وسألته عن سبب تغطيته ليدّه، لم

يجب. أزال الغطاء بنفسها، ورأت جرحاً، أجابها:

- هذا وشم.

شتمت صلاب في داخلها، وطلبت من حيان أن يشتري الكاز، طمأن سر حال صلاب مؤكداً له أن الأمور تجري على ما يرام، وأنه حان الوقت كي يرتبوا أمورهم. خبأ الصندوق وانطلقا، لم يفهم أحد أي شيء، علق ليبيد:

- إن شاء الله لنعم؟

وجلس قرب أمه يخبرها أن معلم المدرسة سيطرده من المدرسة إن لم يخلق شعره، تبرع حيدر بقصه له، وخرج يتفقد قن الدجاج، حاله جيدة. أنهى حيدر حلقة شعره، خرج الديك من القن، حاول الاقتراب، أخافه حيان، حط الديك على شجرة الزيتون الضخمة يراقب ما يجري.

نادى على إمام ليقص شعره أيضاً، عاد صلاب ثانية، دخل باحة البيت وشاهد الأولاد مجتمعين، فهم الأمر، وسأله:

- كم دفعوا لك؟

هز السؤال حيدر، من أين لهم حتى يدفعوا؟ اتجه إلى الغرفة، صاح بأعلى صوته يطلب منه أن لا يخرج من باحة البيت، فقد وجد عملاً في المساء له، أي عمل؟ أي مساء؟ منذ متى و صلاب يحب العمل ويبحث عنه.

خرج مسرعاً عندما سمع صوت البك أب، وأخذ معه الجهاز، عاد بعد نصف ساعة، نادى على حيدر وهو يضع ورقة زيتون قطعها عن الشجرة في فمه، أخبره بحقيقة الجهاز:

- إنه يكشف عن الذهب تحت الأرض.

بقيت الكلمات ترن في أذن حيدر، أحس أن الكلمات تطير وتدب في داخله كالنحل، وأدرك أن أباه لم يتعلم أخطائه، وجاء بما سيجلب المتاعب لهم جميعاً، جلس الثلاثة في الغرفة؛ صلاب، وسرحال، وبطرس، اضطر حيدر للجلوس معهم، لم يأتوا على ذكر موضوع الحفر. أو يأتوا على ذكر الجهاز أو الذهب، بل كانوا يتذكرون رفقاء السجن، أخذوا يشربون الشاي ويدخنون.

انطلق صراخٌ فجأةً، بدا قادمًا من بيت أم علقمة، ذهب حيدر إليهم، واكتشف أن أبا علقمة في حالة سكر شديد، دخل على أولاده وزوجته، حاملاً عصاً، انهال بالضرب على من وجدته في طريقه.

سحب علقمة العصا منه وسحبه حيدر إلى الشارع.

اطمأن علقمة بعد سحب أبيه إلى الشارع، سار به إلى طرف الحي بالقرب من الطريق العام.

جاء البك أب الذي سينقل الرجال الثلاثة، إلى غايتهم، سأل عن حيدر،  
جن عندما علم أنه عند علقمة:  
- فليحضره أحد الآن.

تقابل لبيد وحيدر في باحة البيت، أسرع إلى عذاب أخبرها أن أم علقمة  
ضربت على بطنها، ذهبت مع حيدر إليها، وجدتها قد أصيبت بنزيف، رجع  
حيدر للباحة أخبر والده أن أم علقمة بحالة سيئة ويجب أن تنقل  
للمستشفى، وقبل أن ينهي كلامه، صاح بأعلى صوته:

- هذا شيء لا يخلصك!

لكن سرحال قرر نقلها إلى المستشفى، لكنه منع زوجته من الذهاب  
معهما، انطلقوا إلى وجهتهم الجديدة.

نقلوا علقمة معهم عندما رأوه في الطريق.

قرر إمام أن ينتقم من باقر بعد أن رفع سعر السيجارة إلى خمسة قروش،  
نشر الخبر في المدرسة، قرر أن يتفحص الدكان جيداً ليسرق كل ما تطاله يده،  
اتفق مع ثلاثة من رفاقه، دخل إمام وطلب منه أن يبيعه سجارتين وكيلو  
سكر، فتح جرار الطاولة بحثاً عن السجائر، أطفأ أحد أصدقائه الضوء،  
صرخ باقر، سرقوا ما استطاعوا سرقة وهربوا.



تنهد غاضباً، بعدما رأى الدمار الذي حل بدكانه، اتجه إلى بيت صلاب، عاد سرحال إليهم بعد أن أوصلوا أم علقمة إلى المستشفى، اعتذر وأعلن جاهزيته للانطلاق، طلب من حيدر أن يستعد للذهاب معهم، لكنه اعتذر عن الخروج، فعلية أن يكون قريباً من بيت أم علقمة. غضب من الرفض، وسرعان ما اشتعل غضباً، وصرخ:

- لماذا يا ابن العاهرة؟

وأكد سرحال على طلب الأب:

- هذه هي الأدوات.

حمل الفأس والمجرفة ووضعها في البك أب من الخلف، ولكن باقر استوقفه، لينخبره بفعلة إمام، لكنه طلب منه أن يذهب وينجبر الشرطة عنه أو يقتله.

وطلب من سرحال أن يتحرك، انطلق البك أب بهم.

أحضرت أولاد أم علقمة، صنعت لهم العشاء وبعدين صبت لهم الحليب، تمت أن يناموا عندها، لكنها خافت من زوجها. هزت برأسها لتطرد أفكاراً راودتها، لم تستطع تخيلها.

وصل الأربعة سفح الجبل، أحس نفسه ذاهباً ليهدم الجبال المحيطة، أخفوا البك آب قدر المستطاع عن الأنظار في الطرق الوعرة. استمر المشي أكثر من نصف ساعة إلى أن وصلوا العلامة التي وضعها صلاب، ثلاثة حجارة صغيرة هي العلامة، أضاءوا بالمصباح اليدوي طريقيهم، وأخرج من جيبه اتفقوا أن يحفروا بالتناوب دون إحداث ضجة، ساعدتهم المنسية أنها بلا قمر يحرس ليلها والريح تخفي أصواتهم. ضرب بالفأس مكان العلامة ضربة قوية، وطلب من الجميع الانتباه والحذر، جلسوا على الأرض قرب مكان الحفر وسرحال يتكلم مع صلاب عن أحدث الأجهزة التي تكشف الذهب تحت الأرض، وأكد له أن أحد أصدقائه سيحضر جهازاً أحدث بكثير من الذي بحوزتهم ويعطي أدق التفاصيل عن عمق الذهب تحت الأرض وعن الكمية والشكل، استمروا على أمل بأن تكون المنسية مليئة حقاً بالذهب، تنهد قائلاً:

- تاريخ الذهب في هذا الوادي. وأشار إلى أرضٍ تحته.

عادت الهزة الأرضية مرة أخرى، خفيفة، هادئة، أحسا بها، وتمنيا أن تنشق الأرض ويخرج الذهب منها.

خافت عذاب، لم تسقط الطنجرة هذه المرة، وتوسلت أن يلفظ الله بحالها وحال أم علقمة، وتمنت أن لا تعود الهزة وتحث أضراراً كبيرة. دهش حيدر مما سمعه عن الذهب، سمع ما هو أشبه بأساطير خرافية، والخوف يضرب قلبه خوفاً على إخوته، على عذاب وعائلة أم علقمة، الهزة التي مرت لم تنسه الخوف يقف مدهوشاً بين أبيه وأصدقائه وكلامهم عن الذهب. أكد صلاب صحة الأقاويل متمنياً أن يعثر على مراده وأن تعود الهزة وتشق الأرض، ويتزوج أجمل النساء ويغير حياته بالكامل، ويودع الفقر إلى الأبد. قطع بطرس كلامهم وطلب منهم أن يرفعوا التراب من الحفرة.

استطاع تفتيت التراب المتناسك بضرباته القوية، وبدأ يرفع التراب ويرميه خارج الحفرة وسرحال يلتفت برأسه يميناً وشمالاً ويتمتم مع بطرس، عطشوا وبحثوا عن الماء، واكتشفوا أنه نُسي في السيارة، طلبوا من حيدر أن يحضر الماء، أخذ مفتاح البك آب وذهب لإحضاره.

لم تعد تخاف منه، جعلت أطفال أم علقمة ينامون عندها، وماوية جارها تتوسل وتدعو لأم علقمة بالشفاء العاجل، فهتمت من الصغار أن أباهم طلب من زوجته أن تذهب وتأخذ الأولاد إلى الملجأ المهجور القريب من الحي وتسكن فيه. ليتزوج راقصة.

قادته خطاه إلى مكان البك آب، تناول قنينة الماء الكبيرة، حملها واتجه إليهم، بدأ التراب الجاف غير المتماسك بالظهور، ارتاح الجميع عندما بدأ صلاب يضرب في التراب الجاف، وهم يتبادلون الكلام في ما بينهم متوقعين أن يعثروا على الذهب ما بين الساعة الثالثة والرابعة فجرًا، خاف من ظهور الصخور الكبيرة، عندئذٍ ستكون المشكلة كبيرة كلما كان حجم الصخرة كبيرًا، سدت بعض الصخور الطريق عليه، وصل الماء، جلس الجميع ليستريحوا، طلب صلاب من حيدر أن يواصل الحفر، وأعلن عن نيته تزويج حيدر وحيان وإمام في يوم واحد، إن وجد الذهب؛ فإنه يريد عزوة تملأ البلد.

تصبب عرقًا، لم يعر اهتمامًا لأحاديثهم بل كان يضرب الفأس وفي قرارة نفسه يعرف أنه يحفر في الغيب وليس في التراب، تمنى أن يحفر قبره، أن يأتيه الموت ويدفن واقفًا، هنا موت يغير شكل الحفر، ماذا لو دفنت في حفرة لم تكن قبرًا، أليس القبر حفرة؟ حفرة يتوقعوا إن بها الذهب مناسبة جدًا، حتى لو تم الدفن وقوفًا في النهاية أدفن أدفن.

سأل الأولاد عذاب:

- كم يوم سوف ترقد في المشفى؟

- هل ستعود للبيت أم لا؟

سؤال أحد الصغار كان مختلفاً:

- وهل زوجك يضربك؟

حركت يدها فوق وجه طفلتها لتبعد الناموس عنها.

- كلهم واحد.

اتسعت الحفرة، لم يتم العثور على شيء وأصبح الاصطدام بالصخور

يعيق عملية الحفر، نفذ الماء وحل التعب في الأبدان.

- صلاب ما هذا؟ ماذا يحدث؟

- أوقف هذه الأصوات، أوقفها.

نزل في الحفرة لا يعرف ماذا يفعل ويطلب من حيدر أن لا يتركه وحيداً،

يضيء سرحال المصباح تارة ويقفله أخرى، أمسك بيد صلاب وأخرجه من

الحفرة ونزل مكانه يتفحص الحفرة بشكل دقيق على ضوء المصباح. طلب

صلاب من الجميع التوقف عن الحفر، وجلس على إحدى الصخور. أشعل

سيجارة بعد أن تفقد الماء وتأكد من نفاذه، أكد بطرس أن الذهب المدفون

مرصود، ويجب فك الرصد لأن أغلب الذهب مرصود في الوادي، وفك

الرصد يتطلب إحصار الشيخ طلحة لفك الرصد، وهل التاريخ شيخ؟

تناول سرحال حفنة من التراب ووضعها في كيس؛ ليقدمها إلى الشيخ طلحة، استفسر من سرحال إن كان ذاته الذي في السجن، أجا به مؤكداً براعته في فك الرصد عن الذهب ومعرفة كل أنواع الرصد، ويعرف ما هي أنواع البخور والأدوات اللازمة، أكد سرحال على ذلك وأنه لا يمكن عمل أي شيء دون الشيخ، لأن الوادي مرصود، سلط الضوء على الحفرة؛ ليرى العمق الذي وصلوا إليه، وحجم الصخور التي تم العثور عليها. وصلوا عند الفجر، حالتهم يرثى لها والتراب يغطيهم من رؤوسهم حتى أقدامهم، اتجه حيدر صوب البقرة، أخذ صلاب يغتسل، طلبوا من سرحال وبطرس أن يغتسلوا، اغتسلا وهما بالمغادرة، أكدوا عليه أن يحافظ على الجهاز، وخرجا، أدار بطرس محرك البك آب وانطلق. تفاجأ بأولاد أبي علقمة نيام في الغرفة، صرخ بأعلى صوته:

- تحوّل بيتي إلى ملجأ أيتام؟!!

لم ترد بشيء، انتظرت أن يأتي حيدر، فهو يمتص الصدمات في المنزل، دخل فور سماعه صراخ أبيه وأعلن أن الدجاجات غير موجودات في القن، اتهم أولاد أبي علقمة وهو يصرخ، لم يعط حيدر الموضوع أهمية؛ لسماعه صوت الديك يعلو في الخارج، طلب منه أن يرسل الأولاد إلى بيت أبيهم،

فطمأنه أنه سيتولى إرسالهم إلى بيت أبيهم، طلب الطعام والشاي. اطمأنت عذاب إلى أنه سوف يفتش غله بالطعام، ليس في الأولاد أو فيها، خلع ملابسه تمدد في فراشه وعيناه تنظران إلى السقف.

أخبرته عذاب أن اليوم هو موعد المؤن من وكالة الغوث الدولية، هب إلى الحقيبة، تناول البطاقة التي تسمح له بالحصول على المساعدات من UN وناولها لعذاب وهو يحذرهما من فقدانها، كان عليها أن تحتاط على البطاقة. استغل ليبدأ استرخاء أبيه وهو لا يعلم بما يفكر، ظنه هادئًا وطلب منه رسوم الرحلة المدرسية، تفاجأ به يصرخ بقوة:

- تعال يا ابن الحمار.

أمسك من أذنه، وجره إلى الخارج بعد أن صفعه وضعه تحت حبل الغسيل المربوط بين شجرتي الزيتون، طرحه أرضًا وطلب منه أن يبقى مكانه نائمًا تحت حبل الغسيل وعاد للغرفة يصرخ:

- أف، الطعام.

وطلب منهم الذهاب إلى ساحة البلدية، حيث تقف سيارات وكالة الغوث المحملة بالمؤن رفعه حيدر عن الأرض وقفًا بالقرب من الأواني المغطاة، رفع الأغذية وبدأ يساعده في غسل رأسه ووجهه ومسح الطين عن

ملابسه واعدًا إياه أن يعطيه رسم الرحلة المدرسية، غسل الماء وجهه ودموعه، عاد وجهه بلا دموع وعاد اليأس، أثار الدموع باقية لم تزلها الماء، باقية مثل لعاب مدفئة يسيل على غموض الصقيع وكل شيء في داخله يدمع، قدمت عذاب ومعها قطعة خبز عليها قليل من الزيت والزعر وكوبًا من الشاي، جلست وطلبت من لبيد أن يأكلها ويشرب الشاي استعدادًا للذهاب إلى ساحة البلدية، أنهى طعامه وشرب كوبًا من الشاي، دخن ثلاث سجائر واستلقى للنوم بعد ذهاب الأولاد.

أيقظه حديث عذاب مع حيدر:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- للعمل في المزارع.

هبّ غاضبًا كالعادة، استطاع أن يمنعه من الذهاب بحجة أن الحفر أهم من العمل في المزارع، وعليه أن يبقى مرتاحًا استعدادًا للحفر في أي وقت، ضحك حيدر وهو يعلم أنه يحفر في الصفر. بقي في البيت ولم يغادره، أفرغت الحليب الزائد في دلو وأحكمت إغلاقه، ذهب حيدر إلى علقمة. جلست تزيل العجين العالق بأصابع يديها، واستعدت لإشعال الحطب تحت الصاج.



سار في اليوم التالي إلى المدرسة متعبًا، بعد أن حمل بعض الأغراض للبيت وبعد أن استغل موظفو UN، الأطفال بأن شغلهم بحمل الأكياس مقابل مبالغ زهيدة.

في المدرسة، وقبل أن يتهيا معلم التاريخ لإعطاء الدرس قرر أن يجمع من الطلاب رسوم الرحلة المدرسية، ستكون الرحلة لزيارة مقامات الصحابة في وادي الأردن.

خط خطأ على طول إحدى صفحات الدفتر الصغير، نظر إلى الطلاب، لم يعطه أحد شيء، فقط كانوا يرسلون إليه نظراتهم الخجولة اليائسة، استغرب وأعاد طلبه، تقدم طالب واحد وأعطاه الرسم ناقصًا ربع دينار، وسار بسرعة إلى مقعده. نظر إليهم بتمعن، سألمهم مرة أخرى عن سبب عدم الدفع، لكنهم حولوا سكوتهم إلى ابتسامات سخرية بانة على وجوههم، طالبًا منهم أن يبرروا سكوتهم، بهدوء طفل بريء قام أحد الطلاب وأخبر المعلم أن أولياء أمورهم رفضوا أن يعطوهم رسم الرحلة بعد أن اختلقوا الأعداء.

قام المعلم وسار بين الطلاب وهم جالسون سأل التلاميذ واحدًا واحدًا:

- ماذا يعمل أبوك؟

يجمعهم عمل واحد، أكثرهم عاطل عن العمل، طلب منهم أن يتنبهوا للدرس وأن ينسوا الموضوع.

عاد حيدر، أخبر عذاب أن أمّ علقمة أجهضت، وأن الأطباء سوف يبقونها في المستشفى لحين تحسن حالتها الصحي، استقبلت عذاب الخبر السيئ، وهي تفكر بالعذاب الذي لاقته صديقتها.

عادت مسرعة بعد أن أخبرتها الطبيبة بضرورة الانتباه لصحة الطفلة وهي تكتب الوصفة الطبية دون أن تفحصها. في طريق عودتها للبيت تذكرت نفاذ مسحوق الغسيل، غيرت الاتجاه إلى بقالة باقر، دخلت عليه وهو ينفخ على المذياع لإزالة الغبار عنه، طلب منها قبل أن تتكلم أن تخبر صلاب بأن يسد دينه، وطلبت علبة مسحوق جديدة للغسيل وست قطع من الصابون الأخضر وأن يسجل ثمنها على دفتر الدين، عادت إلى البيت، سمعت صوتاً في الخارج، دعاس يحمل الصندوق الأسود، أيقظت زوجها، سار إليه كالمجنون، أدخله الغرفة وطلب منها أن تجلس في الخارج، أخبر دعاس بموضوع الكهرباء ليتدبر أمر العداد، أخبره بإمكانية تعطيل العداد والاحتفاظ بالتيار، بعدما أتمّ العملية، طلب منه أن يتدبر موضوع عداد المياه، وعده أن يفعل.

خرج حيدر بعدما قام بأعمال عديدة في المنزل، حضرت ماوية فجأة إليهم، \_كالعادة\_ جلست وبدأت تقص الأخبار، أول خبر قصته عليها خبر سوء حالة أم علقمة جراء فعلة زوجها، وحدثتها عن متاعب عديدة تمرّ بها أختها جرّاء كونها عقيماً. وأخبرتها بشكوكها بأن يكون هذا سحراً.

جاء إمام، إذ كان أبوه نائماً، لاحظت عذاب سكوته وسألته لتطمئن، لم يجب، وبقِيَ في مكانه تحت الشمس، خلع نعليه ووضع قدميه على الحذاء، أمعن في ثقوب جواربه، بدل مكانه وجلس يقابل أخيه ينظر ماذا سترسم ريشته؟

خرجت تغسل الأطباق البلاستيكية في الخارج تحت الشجرة، الشرافف الزرقاء معلقة على حبل الغسيل، كأن البحر علق بين ذراعيها ليحف، وضعت الأطباق تحت الشجرة وتفقدت الماء في الأواني واكتشفت أن المياه مقطوعة؛ لذا قررت أن تحضر المياه من القناة، فطلبت من إمام أن يرافقها.

رجعا إلى البيت بعدما أحضرا الماء، أنزلت الدلو من فوق رأسها، جلس لبيد قريباً من حيان على حجر صغير بعد أن ترك حقيقته مفتوحة ليرى ما سترسمه ريشة أخيه، بينما عاد إمام وجلس أسفل المزارب، بدأ يتشكّل منظر اللوحة شيئاً فشيئاً بعد أن لونت بالألوان الزيتية، قال لبيد فرحاً:

- صورة شجرة برتقال صامدة، وبجانبيها واحدة مقطوعة.

نهض من نومه، بقي في فراشه، نظر في الغرفة ووجد حيدر يغط في نوم عميق، فرح ليستغله في الحفر، سمع صوت الأولاد خلف الغرفة، ألقى نظرة باتجاههم، جن جنونه عندما شاهد اللوحة والألوان، صاح:

- أف تكسر كلامي.

ارتبك ولم يعرف ماذا يرد، وبأية لغة، اشتعل غضبًا وهو أمامه واقفًا، لم يهرب أو يحرك ساكنًا. تدخلت بسرعة وأخبرته أن المدرسة قدمت له الألوان واللوحة؛ ليشترك في المسابقة.

سبها وشمم الذات الإلهية، ولعن الأولاد والمدرسة وبسرعة جنونية دخل إلى الغرفة، فتح حقيبته القديمة، أخرج المسدس، ثم صوّبه باتجاه اللوحة كأنها عدو، أطلق ثلاث رصاصات عليها.

خرجوا هارين، ركض الديك أمامهم مسرعًا؛ فقد ظنهم يركضون خلفه، لم تعرف أمهم ماذا تفعل، قام حيدر مفزوعًا اتجه خلف الغرفة، رآه يمسك المسدس بيده، خرج حيدر متجهًا إلى الشارع. في آخر الطريق رأى إخوته الثلاثة، تحرك باتجاههم وفهم منهم ما حدث جلسوا على جانب

الطريق يراقبون المارة، اتجهت إلى الشارع رأتهم جالسين عادت بهم وليبد  
يتمتم خائفًا:

- الشارع أفضل يا أمي.

دخلوا البيت طلب الأب من ابنه بأن لا يتأخر ولا يخرج من البيت وأن  
يكون مستعدًا للخروج معه، رفعت الطعام من أمامه، طلبت من الأولاد أن  
يتناولوا طعامهم، اقتربوا، حيان لم يقترب مما أثار غضب أبيه، فصاح وهو  
يهدده بإطلاق النار على صدره إن لم يأكل.

فك المسدس وبدأ بتنظيف قطعه بالبنطال. لم يتكلم، أنهى طعامه بسرعة  
وقام نحو حقييته المدرسية رتبها من جديد تناول كتاباً وبدأ يقرأ فيه،  
نظراتهم تتجه بحذر إلى المسدس، لم يروا من قبل أحدًا يطلق النار على لوحة.  
أنهى الجميع الطعام، دخلت ماوية تحمل كيسًا أسود، ألقى التحية،  
تفاجأت بوجود صلاب في الغرفة وضعت الكيس الذي بدت الكوسا فيه،  
تحاشت أن تنظر إلى صلاب، وضعت السبحة الطويلة أمامها كانت أشبه  
بكومة من الخرز فيها ألوان متعددة، تناولت الطفلة وضعتها في حجرها  
وبدأت تمسح على رأسها مبتسمة، قدمت لها عذاب الشاي، سألتها عن  
أخبارها وأخبار الحي:

أجابت وهي تراقب البخار الصاعد من كؤوس الشاي بدهشة يابسة:

- إنها هادئة كالمقبرة.

قطعت عذاب الكوسا، ثم بدأت بحفرها، وتبادلان الحديث بصوت منخفض، دخلت القطة نظرت إلى الجميع كأنها تتفقدهم ثم خرجت، اقترب لبيد من حيدر يحمل بين يديه كتاب التربية الإسلامية، طلب قراءة إحدى الكلمات في سورة التكوير، بعد أن أشار عليها:

- {{وإذا الموءودة سئلت}}

رد لبيد، ماذا تعني كلمة الموءودة؟

صرخة قادمة من الخارج أهدأ ينادي، قام أبوهم ليكتشف الأمر؛ ظنه أحد أصدقائه. سار خلفه إمام، وخرج مع صديقه مسرعًا وشتائم صلاب تتبعه، عاد إلى مسدسه، ركبه من جديد وخبأه، نادى حيدر واتجه إلى مكان البقرة، وقف يتأملها، دهش حيدر من تصرفاته، يعرف أن أباه لا يحب الذهاب إلى مكانها أو النظر إليها. لم يفهم شيئًا، أحس أنه يزداد غرابة وبعدها، كان عليه أن يلتزم في البيت ولا يغادره، والسبب الشيخ طلحة سيكون في المنسية في أقرب وقت، ظن حيدر أنهم لن يذهبوا للجبل سأله ليتأكد، غضب مؤكداً له أن الحفر لن يتوقف ولا راحة بعد اليوم لحين استخراج

الذهب. طلب منه أن ينظف المعدات من التراب، وأن يجهز كمية كافية من الماء، وطلب منه أن يجهز أكياس بلاستيكية سوداء ونظيفة وغير مثقوبة. سأله حيدر، لماذا يريد هذا:

- لنضع فيها الذهب.

ابتعد غاضبًا، يشتم عذاب والبقرة، دخل علقمة ليلقى حيدر، تفاجأ به ينظف المعدات، اقترب منه، حيث طلب مساعدته، قطع عليه جميع الأسئلة موضحةً له أن أباه من أمره بفعل ذلك، سأله عن حال أمه، حزن عندما علم أن أمه ليست على ما يرام.

لم يعجبه الحديث، اتجه إلى الغرفة وراح ينظر إلى حيان وهو يعلم لبيد كيفية الصلاة، بحث عن منفضة السجائر، لم يجدها، صرخ على لبيد لإحضارها له. وضعها أمامه ثم طرده وتبعه أخوه. دخل أبو بيرم، تفاجأ بحيدر يقف أمامه، طلب منه أن يدخل، رد غاضبًا:

- أريدك أنت، أخوك يسرقك المحصول.

فهم حيدر الأمر، وعده أن يوقفه عند حده ويعاقبه أشد العقاب، لكنه ظلّ يصيح ويهدد بإبلاغ الشرطة، وانصرف غاضبًا، سمع أبوه الحديث وفهم الأمر، نادى على إمام بأعلى صوته. تناولت عذاب العصا وانهالت عليه

بالضرب، لم يعرف من أين تأتيه الضربات من حيدر أم من أمه، شتمها صلاب:

- أهبل، الرجل من يعرف كيف يسرق!

اتجهت إلى الغرفة مطأطأة الرأس بعد أن سمعت كلام زوجها البطولي، غادر علقمة وتبعته ماوية، وأخذت معها الكوسا، التجأ إمام إلى مكان البقرة، حاول الجميع لومه ونهره، لكنه رفع سكيناً كان يضعها على جنبه، وقال:

- سأقتل كل من يقترب مني.

وصل سرحال وبطرس متأخرين، أخبرهم أنه عثر على مكان قريب من المقبرة القديمة، يقال إنه مليء بالذهب وطلب منهم أخذ الجهاز إليه، بمساعدة الشيخ طلحة، الذي قارب على الخمسين قضى عشريناً منها في السجن؛ لعدة قضايا منها قتل ابنته وهو مخمور.

طلبنا من صلاب رؤية المكان القريب من المقبرة، حيث تقع القلعة القديمة، أكد لهم بعد المكان عن الناس والبيوت وسهولة الحفر فيه ليلاً، ونظر إلى حيدر صائحاً؛ كي يجهز نفسه، انطلق الأربعة مشياً على الأقدام، أحاطت المزارع بالطريق مما أراحهم، اضطرت أن تغسل في الليل بعد أن



اتسخت ملابس الطفلة، الحبل الشوكي في عمودها الفقري معلق عليه أوجاع ينقلها الى كل أجزاء جسمها. اشتمت رائحة دخان قادمة من جهة البقرة لترى ما الأمر، شاهدته يدخن وأمامه كومة صغيرة من العشب الجاف، يخرج منها دخان كثيف، فقدته صوابها، أطفأت النار وأنبته، وقف بالقرب منها، ينظر إليها، لم يهتم لتوبيخاتها له، أحضر حجر وجلس يقابلها وهي تغسل إلى أن انتهت، بدأ يتمتم، سألته أن يتكلم بوضوح، أجابها:

- أعد قطرات الماء التي تنزل من الثياب.

ازداد غضبها منه، استاءت منه عندما سمعته يسخر منها:

- إذا أنجبت في كل عام، سوف تضطرين لنشر الملابس على أسلاك

الكهرباء، لن يكفي الحبل الذي تجلسين تحته.

في الطريق إلى المقبرة، ارتعب سرحال وبطرس من كوخ كان في طريقهم، ومن جنديين، كانا أمامه، أوقفوهم وسألوهم عن وجهتهم، لم يدع فرصة لأي أحد بالكلام، أخبر الجنود بأنهم ذاهبون لزيارة صديقهم الذي يسكن قرب المقبرة بعد أن ذكر له اسمه وكنيته. احتجز الجنود بطاقتهم الشخصية وسمحوا لهم بالعبور، جن سرحال وبطرس متسائلين عن الدافع وراء هذه المخاطرة، طمأنهم أنه ثمة أكثر من طريق يؤدي إلى المقبرة.

أخبرتها ماوية أن صلاب يبحث عن الذهب والدفائن، أخذت الموضوع على أنه تصرفات مجانين ثم عادت وتمنت أن يكون لها نصيب من الذهب الذي يبحث عنه، وعددها بعد الزواج أن يشتري لها آلة خياطة ولم يف بوعده لها.

وصلوا المقبرة، رموا أعقاب سجائرهم بالقرب من مقابر الشهداء العرب، كأنهم أحرقوا دمهم في أول زيارة لهم.

قرؤوا الفاتحة على أرواح الموتى، وأكملوا طريقهم إلى جهة الشمال، اقترب من قبري أبيه أخيه، وقرأ على روحهما السلام، تأملوا المكان حولهم، أخذتهم غايتهم النفعية أكثر مما أخذهم سحر المكان، قرروا العودة للمكان مرة أخرى بعد أن يفحص طلحة التراب، حملوا الجهاز وذهبوا. في الطريق، راحوا يتحدثون عن كميات الذهب الوفيرة التي يخبئها الوادي. قطع كلامهم صلاب، وطلب منهم أن يجدوا تفسيرًا للصوت الذي يسمعه الأهالي بعد منتصف الليل؟

صوت ماذا؟

صوت زئير أسود تجري قرب النهر وأحيانًا، صوت خيول؟

صوت فرس أبي الطيب المتنبي، وزئير الأسد الذي شكاه منه أهل النهر،

وتجاوز ما قاله:

## أمعز الليث الهزير لمن ادخرت الصارم المصقولا

وقعت منه على الأردن بليّة نضدتُ بها هام الرفاق تلولا لم يتمكن أحد من النوم، من شدة المطر، قام ليبيد، من نومه كالمفروع من شدة الصوت المرعب، ما زال أبوه غائبًا، مما أراح الجميع، لكن غياب حيدر يقلقهم كثيرًا، إضافة إلى السقف الذي بدأ يسقط، انتابها الحزن وبدأت تفكر بما هو أخطر من ذلك.

رغم فرح إمام بقدوم المطر واحتمال العطلة، أخبر أمه بذلك، وانشغال أمه بتدارك سقوط الماء داخل البيت، ظلّ فكرها ذاهبا إلى حدّ بعيد، لدرجة أنها لم ترَ ماوية لحظة دخولها. طلبت منها كوبًا من الماء، قدمته لها، وشعرت أن لديها أخبار غير مريحة، بعد أن فهمت عذاب أن في جعبتها أخبار غير مريحة. جارة لهم أصيبت بالسرطان وطردها زوجها.

استيقظت مع آذان الفجر نشيطة، أخفت أثر الفجر فيها، فتحت الباب، فرحت بانقطاع المطر لكن كلمة سرطان ظلت تدور في رأسها، أنهت عمل الصباح وأيقظت أبناءها. قال لها ليبيد:

- كل عام وأنت بخير، اليوم يوم الأم، وكذلك حيّان.

غادروا إلى المدرسة حيث الكل يحتفل ويلقي الخطابات حول الأم.

عندما عاد إمام إلى البيت، أعطى أمه ورقة ملونة، لم يكتب عليها شيء، بمناسبة يوم الأم، انزعج لرجوع الدلف مرة أخرى، وقرر الذهاب لشراء الإسمنت. اغتسل، ثم طلبت منه عذاب تبديل ملابسه، رفض وخرج. طلب ثمن الإسمنت من حيدر، وظن أنه لو أخذها لن يشتري فيها شيئاً، فاعتذر منكراً وجود المال معه، غضب وشتمه.

اتجهت عذاب لغسل الأواني، اقترب منها، سأها عن المال الذي مع ابنها، نفت ذلك، مما أغاظه، لكنه خرج في نهاية المطاف.

صادفه شاب، ألقى عليه التحية، سائلاً عن بيت للإيجار، اتضح أنه من العراق.

انتهاز الفرصة، وقرر الذهاب معه والبحث في المنسية عن غرضه، طامعاً ببعض النقود، أوهمه أنه تاجر، عرض عليه أن يعمل معه، اتجها إلى مدخل المنسية، استشارا بقالاً، واقترح عليها بيتاً، شكراه وغادرا.

أحار اضطراب مواعيده زوجته، ولم يلهها الأولاد وفوضتهم، لكنه ظلّ يدور في السوق، بعد أن ترك الشاب العراقي وحده، تفحص الكيفية التي تتم فيها العناية بالخضار والفواكة، وأخافه منظر الناس والشرطة، بعد العثور على رضيع ملقى خلف الحمام التركي القديم.

دخل غاضبًا، بعدما فشل في النصب على العراقي، مما دفعه إلى ضرب أحد أولاده بالحزام، ثم أكمل عليهم كلهم، حتى على زوجته، مما دفعه إلى الهرب:

- المسجد، إلى المسجد.

اتجهوا إليه، خائفين، اكتشف إمام جرحًا صغيرًا بقدمه، ارتجف كثيرًا، جلسوا في باحة المسجد، خططوا للعودة بعد صلاة الجمعة، ارتاحت عندما رآته نائمًا، اتجهت إلى طفلتها وتفقدتها، ثم عادت إلى البقرة لتتفقدتها أيضًا، ذهبت تبحث عن أبنائها، تفاجأت بوجود جارتها ماوية تهم بالخروج من البقالة بيدها حاجياتها انتظرتها، وخرجتا معا.

انتهت صلاة الجمعة، أصرَّ إمام على الذهاب إلى البيت وحده، ليتأكد من عودة حيدر. وافقوه الفكرة وانتظروه خارج المسجد.

وصل ووجد حيدر، نادى عليه، لم يجب، خرج مسرعًا، أخبر أخويه بالأمر وعادوا إلى البيت، جهزوا أنفسهم لإعادة بناء السقف، حالة أمه تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ساروا باتجاه المزارع، سمعوا صراخ أطفال مع صوت إطلاق عيارات نارية من أحد البيوت، اتجها إلى مكان الصراخ، خرج منظور بن طعان خائفًا، سألوه عن الأمر، أخبرهم أن أباه لا يريد أحدًا وطلب منهم

ومن أهمهم ترك البيت، والذهاب إلى الشارع وأطلق الرصاصات من مسدسه بالهواء لينتقم من الرب الذي ابتلاه بهم؛ إما أن يخلق المشاكل أو يزعج نفسه فيها.

خرج حيدر وعلقمة، وصلا إلى المزارع أخذوا أجرتهما واتجها، إلى المقبرة لحفر القبر، في المساء عاد سرحال وبطرس إلى المنسية، معهم رجل ذو لحية وموشوم، إنه الشيخ طلحة، سألوه عن أي جديد، فرح بقدمهم، رآهم كما الأعجوبة، ابتسم، علم الشيخ طلحة بوفاة الرجل في الحي، وطلب منهم أن يتجهوا إلى بيت ذبيان لتقديم التعازي لأهل الميت، سأل طلحة عن التراب بلهفة بعدما قدّم الواجب بملامحه المتدينة، سأل عن التراب بلهفة، أخبروه أنه في بيته، ذهبوا لإحضاره، طلب منهم الدخول، نادى على زوجته:

- عذاب، عذاب...

أخبره لبيد أنها عند زوجة ذبيان، طلب منه أن يناديها، فذهب، تفحص طلحة التراب والمسواك في فمه، طلب أن يحضر اثنين من أولاده الذكور، شرط أن تكون أعمارهم أقل من عشر سنوات. أطاعه جاهلاً ما سيجري، أمسك لبيد من يده وطلب من زوجته التي حضرت أن تعد الطعام والشاي، بحث عن طفلٍ آخر، أحضر أخا علقمة الصغير الذي كان

يلعب في الشارع، طلب منه أن يدخل معهم الغرفة لإعطائهم الحلوى، أحضر القرآن الكريم، تبعاً لأوامر الشيخ، فتح الشيخ طلحة القرآن وهو يتمتم، أين سورة الحديد؟ وقع نظره على سورة الصافات، قرأ بسرعة:

"فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ".

أصبح منتصف المفتاح داخل القرآن والنصف الآخر خارجاً منه لف الخيط الطويل حول القرآن، ووضعه بين الطفلين وطلب منهم أن يضع كل منهم سبابته اليمنى أسفل الحلقة التي تعلو المفتاح المربوط في الخيط، رفض شرب الشاي أثناء العمل، مما جعل صلاب يعتذر، شرح الشيخ طلحة للطفلين ما يجب أن يفعله، رفع المفتاح من أسفل حلقتيه، وما إن ارتفع القرآن عن الأرض حوالي شبر طلب منها أن يتوقفا عن الرفع وأن يبقيا على حالهما. وضع قطعة صفراء في وسط التراب، وأشعلها بعود من الكبريت، تأملها وهي تحترق، أمر الولدين بالانصراف. انطفأت القطعة الصفراء،

بعدهما احترقت، أكد على أن المكان غير مرصود، ولن يكون هناك أي صعوبة في استخراج الذهب منه، على عكس موقع الجبل إذ إنه مرصود.

جاء باقر إليهم مهدداً؛ بسبب الديون المتراكمة عليهم، شتمه وطلب منه أن يفعل ما يحلو له، ذهبوا بعدئذٍ لرؤية المقبرة القديمة، أخفوا السيارة في الطريق، أخذوا الجهاز معهم إلى الموقع، أكد لهم نيته في بدء الحفر بأقرب وقتٍ ممكن، لم يكثرثوا لما أصابهم من الطين وواصلوا المشي حتى وصلوا، نظر الشيخ إلى المكان، ركبوا الجهاز بغية أن يعرفوا المكان الدقيق للذهب، رغم كثرة الحشائش وهم خلفه يمشون ببطء شديد، والموت وحده يجرس الظلام ويجرس أعمدة الكهرباء المطفأة المزروعة بين القبور في صمت خيف، حتى يتسنى لهم سماع صوت رنين الجهاز. أصوات خفيفة دبت في الأعشاب الكثيفة،

سأل الشيخ صلاب عن مصدر الأصوات وهو يدير رأسه في جميع الاتجاهات:

- أصوات ضباع، ذئاب، لا يهم.

ظلّ يمرر الجهاز، طلب بطرس من الشيخ، أن يوسّع دائرة البحث وأن يتجه شمالاً، لكنهم وقعوا في قبضة الحرس والجنود.



لم تستغرب غيابه، اعتادت على هذا الأمر، حلبت البقرة وطلبت من حيدر أن يقوم للصلاة، غلت الحليب صلى الفجر وعاد للنوم بعد أن ترك العمل في المزارع ينتظر ذهب أبيه، عاد للنوم.

دخلت إلى غرفة العمليات، رأتها وهي مسجية على سرير تحيطها الأجهزة، كانت لحظات وفقدت حياتها، قيل إن المسئول عن وفاتها طبيب التخدير، قرروا استخدام بعض الأعضاء لإفادة مرضى آخرين.

حين ذهب باقر للشكوى للحصول على دينه، تفاجأ برؤية صلاب برفقة ثلاثة رجال مكبلي الأيدي، يقودهم شرطي إلى غرفة التحقيق، وقف مندهشاً، ضحك في سره قائلاً: (( جاء بقدميه إلى الشرطة )) تشجع أكثر سار بفرح إلى الضابط المسئول، قدم الشكوى بعدما أخبر الضابط بوجود صلاب في غرفة التحقيق.

ماتت أم علقمة.

بدأ موسم الزراعات الصيفية؛ باذنجان، بامياء، ملوخية، لوبياء، فاصولياء، طماطم، بدأ المزارعون بتجهيز الأرض وإزالة الأعشاب الزائدة، عرف باقر أن صلاب سوف يتأخر عن دفع المال حتى وهو بين أيدي الشرطة، موضوع استرجاع دينه سوف يطول، لذا ذهب إلى حيدر لبيحث

معهُ الأمر، أخبره أن لديه قطعة أرض ينوي تأجيرها له، طمأنه ووعدهُ بعدم المطالبة بأجرة الأرض إلا بعد جني المحصول وبيعه.

استحسن الفكرة، وطلب منه أن يمهلهُ أسبوعاً حين ينتهي العزاء. اعترف الجميع على طلحة، وقبضت الشرطة عليه برفقة معداته الخداعة، قرر حيدر الذهاب إلى صندوق المعونة؛ ليتأكد أن المعاملة تجري على ما يرام، أعطت أولادها خمسة قروش ليذهبوا إلى المدرسة - إلا أن إمام رفض الذهاب إلى المدرسة، ذهب بعد تهديد من حيدر.

في طريقه شاهد إمام جاساً في الطريق يدخن، مما استفزه، سأله بشأن هذا، وأجابهُ:

- هذه مدرستي.

استفسر عن معاملة أبيه، أخبروه أنه لا جديد ولم يصرف من أجله راتب بعد، عاد إلى البيت، يحمل أفكاره عن كل شيء حوله، وقلقه وعجزه. ذهب ليسأل عن أخيه إمام، ولم يجده في المدرسة، عندما رجع وجد أخته كلثوم، وقد جاءت لزيارتهم، فرحوا بها جميعهم، جلست بقرب الطفلة، سمعت أخبار أبيها. فهذه المرة الثالثة تأتي إلى رؤيته فيها، وتجده في السجن. استحضرت الماضي بصمت، وحطت صورته وصوته في ذاكرتها.

عاد الأولاد من المدرسة، فرحت برؤيتهم، وفرحوا بها، لأنهم لا يعرفون أين تسكن، فلطالما منعوا من زيارتها.

قلقت عذاب على ابنها إمام بشدة، خرج بعد العصر ولم يعد، أطال غيابه، بحثوا عنه ولم يجدوه.

خافت أن يكون قد رمى نفسه بالنهر أو ضربه أحد، ركضت إليه كالمجنونة عندما سمعته صوته، بعد سماع صوته، سألته عن سبب تأخره عن البيت لم يجيبها، دخل الغرفة، ونام دون أن يخبر أحدا عما حدث معه.

حضر أبو يريم ثانيةً إلى باحة البيت يهدد ويتوعد، واكتشفوا أن إمام حاول سرقة محصوله، هداً حيدر من روعه وطلب منه أن يصبر لحين قدوم صلاب ليعاقبه أمامه. فلم يعلم الرجل بالذي حصل لصلاب. تناول الأولاد فطورهم وذهبوا إلا إمام، قال:

- اذهبي أنتِ إلى المدرسة.

ضربته، ورمى الكتب في الماء الساخن الذي في القدر، أفصح عن نيته بالعمل، تبعاً لنصيحة أبيه:

- لا دراسة بعد الصف العاشر.

اتجهت إلى مكان الغسيل، فأخذت تغسل، تجاهلته بحزن، كنتس  
الباحة، دخلت عليها ماوية، أخبرتها أن ابن أخ صلاب مصاب بالسحايا، أن  
أشخاصا قدموا شكوى لصندوق المعونة بشأن زوجها.

قرر حيدر أن يستأجر الأرض من باقر، وقاوضه على سحب الشكوى،  
وافق. وطلب منه أن يعطيه مهلة قصيرة ليرتب له الأمر.

ذهب ناهض ابن ماوية ليثبت الياфطات الخاصة بالانتخابات، على  
الشوارع والأعمدة الكهربائية، قطع الشارع مهرولاً، فدهسته سيارة سقطت  
من هذا الحفل الكبير، والأحمق. اجتمع النساء في بيت ماوية يشاركنها  
الندب، والحزن. فقد فارق الحياة بعد ساعة من وصوله المستشفى. أقيم بيت  
العزاء، ساندت عذاب صديقتها، وقامت بالخدمة وتقديم القهوة. اتجه عائداً  
إلى بيته، وجد ابنه كنعان يحدث أمه عن إكمال دراسته، فقد أكد لأمه تمسكه  
بهذا الأمر، بينما أعلنت أن لا حول ولا قوة لها في البيت ما دام باقر حياً.

فهم باقر فحوى الحديث وطار صوابه، فصاح غاضباً:

-لن تدرس، بل ستتزوج.

خرج غاضباً، وتاركا خلفه نقاشا حاداً، وأمّه بدورها تستسلم للشتائم  
والتوبيخات.

غادر مع حيدر للسهر حتى الصباح، حتى لا يرى أباه حين يعود. أبان

لصديقه عن ندمه للعودة، الغربية خيرٌ له من الجلوس مع باقر، مع أبوة مدمرة لم ينجُ منها إلا القليل، قرر الرحيل.

صدمه باقر بطلبه؛ عدم مرافقة الشيخ حنيفة:

- هل تفهم؟ رافق قطاع الطرق، أما هذا لا.

رفع أذان الفجر، استأذن الفصيح من حيدر وغادر ماراً من بيت العزاء وقلبه يتحسر على المرأة الثكلى، بدأ ضوء الشمس يتسرب للمنسية حزيناً كئيباً، استيقظوا إلا إمام.

في المدرسة، جهّز المعلمون وبعض الطلاب إكليلين من الزهور، لوضعها على قبر ناهض بعد أن يصلى عليه ويدفن، طلب المدير من مجموعة من الطلاب الذهاب إلى المقبرة قبل موعد الدفن بساعة؛ لتنظيف المقبرة من الأعشاب والعيدان وزجاجات الخمر والبيرة والويسكي المنتشرة بين القبور وتحت شجرة السدر.

لم يهتم إمام للحدث، اختار مكاناً قرب النهر، ودخن مطوّلاً. خرجت سيارة نقل الموتى من المستشفى، رفع أذان الظهر وصلى الجميع على الطفل خاشعين حزاني.

أكد الفصيح أن أباه اختفى في حمامات المسجد، لأنه أخذ مبلغاً من اللات؛ ليشتري له الأصوات، وضع الطفل في القبر ردم التراب، عليه وقرأ الجميع الفاتحة، ووضع إكليل من الزهور على الضريح.

رجع الكل إلى بيته، وظلّ الفقد لأهله، لكنّ حيدر عاد إليه، يزيدُ الفقد فقداً وحزناً، التقى باقر هناك، ناقشا أمر اتفاقيهما، ولم يصدق حيدر نفسه عندما دعاه لرؤية الأرض التي سيستأجرها، اشترى الفول، وكعادته، تصرف باقر مع جحدر صاحب العربة بفوقية، لكنّه لم يعطِ أي اهتمام له:

- الرزق على الله.

خرج باقر مسرعاً، انتهز الفرصة ليضرب عصفورين بحجر واحد؛ فقد نجح في إقناع حيدر بأن يستأجر قطعة الأرض، وأن لا يكثرث للصوص، فسيتدبر أمرهم مع الشرطة. وأنه طلب منه أن يقنع الفصيح بترك الدراسة، وأن يتزوج ابنة عمه، أظهر باقر استعداداه لأن يخصص له غرفة في البيت، طلب من حيدر أن يخبر الفصيح إن لم تعجبه ابنة عمه بعد الزواج، يمكنه الزواج من غيرها، أدرك حيدر الفجوة التي بينهما، فاعتذر عن التدخل لأنه يدرك فشل المحاولة. قرر أن يتبرأ من ابنه على الملأ.

دلّ حيدر على حدود قطعة الأرض ومشيراً إلى الصندوق الإسمتي الذي فيه عداد الماء، الذي سيروي به الزرع، ولم يكف لحظة واحدة عن إعطاء الأوامر لحيدر؛ الذي لم يملك إلا أن يهز رأسه إعلاناً على الموافقة.

تعرضا للحارس، وشرح لهما الملابس التي تتعلق بالحراسة وطبيعتها، والمصاعب التي يواجهها، أبرما الاتفاق، وغادرا.

سيكون الفصيح على ما يرام خلال أيام قليلة، هكذا ظنّ أبوه، لكنه لم يزل حبيس الحرارة أخذه للطبيب الشعبي، وقال له إن حالته ستتحسن:

- لأبي ابن الحمار شربت من دم الحمار.

بعد أن ملّوا، جلسوا في الباحة الواسعة، أخبر حيدر الفصيح عما دار بينه وبين أبيه عندما كانوا في الأرض. علق ضاحكاً أن الزواج على طريقة أبيه ليس إلا مؤسسة تتكاثر فيها الأخطاء، والتناقضات.

صلي حيدر الفجر، حلب البقرة وجهاز نفسه للذهاب إلى الأرض، راعى أمه بعدما بدأت تظهر عليها علامات الحمل، وفكر الجميع بحاله المجهول. وجد عاملين والعجوز دريد بانتظاره، سلموه المحراث الزراعي، أشار حيدر للعامل الذي سوف يحرث الأرض، إلى حدودها، بينما الثاني يجمع عيدان الحطب الكبيرة، والتي يصعب كسرها و تعيق عمل المحراث، عند

الصندوق الإسمنتي، وقف دريد شادًا حزام بندقيته إلى أسفل، ويراقب الغبار الكثيف المتطاير من خلف المحراث، عيناه فقط تبرزان من وجهه وتراقبان العمل.

ظلّ إمام على حاله، إلى أن أتته فكرة حرق اليافطات مشتركا مع صديقه، حددا الموقع والزمان.

تفقد حيدر عمله قبل المغادرة، تناثرت فيها مع حرارة الجو بدأت قطعة الأرض كأنها تغلي الطبيعة على جسدها، وصل البيت، ثم اتجه إلى باقر ماراً في بيت العزاء، شاهده باقر يضرب أحد أولاده الصغار بعضاً خشبية.

سحب الولد من تحت عصا أبيه، وأدخلته أمه إلى البيت وطلب من باقر أن يحضر له البذار لأن الأرض ستكون جاهزة للزراعة في غضون يومين، هز رأسه وأكد أنها ستكون جاهزة خلال يومين أيضاً، وطلب منه كيلو من السكر، أعطاه له، مغشوشا كالعادة.

حادث سير على الطريق، أصيب طفل والآخر مات، نفشى فالموت في البلد.

انتشرت اللوحات التوعوية في البلد، كلّ أعد لوحة.

- حافظوا على نظافة الشوارع



- الرجاء عدم القاء الأطفال في الشوارع

- كونوا آباءً واعين.

خرج حيدر من البقالة، وخلفه باقر:

- قل للفصيح أن يكمل نصف دينه.

رجع للبيت، أخبرته وهي تحضر طعام الغداء أن إمام لم يرجع، أكد لهم

ليبد أنه لا يذهب إلى المدرسة.

طلب من أمه أن يخبئ أخوه، قبل خروج والده من السجن، أخبرته أمه

أنه لا داعي للخوف، جلس وأشار حيدر إلى ليبد وطلب منه الانتظار

لحين قدوم أخاه الآخر إلى البيت لختانه، نظر الرجل إلى ليبد، طلب منه أن

يقرب منه ويجلس بجانبه فعل ليبد ما طلب منه وهو يضع إبهامه في فمه،

عجب الرجل من عمره:

- أين أبوه؟

أخبرهم أن ختان شاب عمره 14 عام يجب أن يكون في المستشفى وليس

في البيت، إما الطفل فسيختنه، مشيراً إلى ليبد المصاب بصمت الخوف،

حقيقة تدهن فشل الموت بنجاح الإنجاب. أمسك وطلب منه أن يجلس

أمامه، تمدد على الأرض، وفتح المطهر الحقيية تناول منها بعض الأدوات،  
ابتسم وقال له:

- انظر إلى الطائر المحلّق في السقف.

يسير مع صديقه على الرصيف جيئة وذهاباً، ينتظر إحدى الفتيات  
العاملات في مصنع الأحذية القريب من الشارع العام، اعتاد أن يراقبها  
ويسير خلفها بعد أن تنهي عملها بحجة أنه يجبها.

اتجه حيدر إلى بيت العزاء حيث كان اليوم الأخير والتقى هنالك الفصيح  
وعلقمة.

حاول المختار ترتيب موعد للجاهة من قبل السائق، لبس ليبد ثوباً أبيض  
حُرْم من لبس البنطال، حتى يتحرك بسهولة ولا يحدث نزيفاً مكان الجرح.

## الفصل الثالث

قرر علقمة الذهاب إلى العاصمة ليشارك في مسيرة تطالب بحقوق الإنسان، حيث اعتذر حيدر عن الذهاب لأنه مشغول بالأرض. شكلوا أحواضاً مستطيلة الشكل متقابلة بينهما قنوات لجر الماء إلى الأحواض. بعدئذٍ، جلس الثلاثة تحت الشجرة حيث تناولوا الطعام، صمت حيدر بعد أن امتلكت الأرض لسانه.

قبراً يطل على شيخوخته، العجوز أصيب بحالة نفسية سيئة منذ زمن أصبح كالمجنون ومع التقدم في السن أصبح ذو ذاكرة معدومة وحاله يسير إلى الأسوأ، استأثرته فكرة أن يبيع إحدى أعضاء أبنائه، مما يجعله دائم التفكير ثقيل المزاج. أبعد الذباب عن كوب الشاي، سيحضر حيدر البذار في المساء، سوف يسقي ويجر الماء إلى الأحواض، جهزت عذاب الغداء وهي تتنفس بصعوبة، استلقى حيدر على فراشه ينتظر وقت الإبدال.

علم الجميع بفصل إمام من المدرسة، لم تحرك به ساكن كل الشتائم  
والتهديدات بل سمح للجميع أن يقولوا ما عندهم أحسن أن لاشيء جديد  
يقال، فقط تمتم:

- سأكون مثل أبي

اتجه حيدر إلى باقر، وهو يعرف أن الوقت ما يزال باكراً على استلام  
البذار؛ لكنه يأس من جو البيت، عندما طلبت من حيان أن يلّم الغسيل، قال  
لها:

- ذهب عمرك وأنتِ جالسة تحت الحبل.

سكتت، حاولت، ثم تراجعت كأن صوتها دخان تعثر بالخنجرة.

وصل حيدر، وجدده فهم من صرخاته أنه متضايق من ذهاب الفصيح إلى  
العاصمة للمشاركة في المسيرة، صاح في وجه حيدر كأنه يراه لأول مرة، إن  
كان ما سمعه صحيحاً أم لا، دخل باقر يتطاير غضباً طرد الولد ورمى  
الخمسة قروش في وجه الطفل وهو يصيح:

- اغرب عن وجهي.

هدأ من روعه أبو مضر، مؤكداً أن الزواج هو الحل الوحيد الذي ينقذ الشباب من الانحراف، استعجله حيدر، وذهب مع أبي مضر للأرض، حدثه في الطريق عن ابنه وزواجه، وذكر له أن لم يكن موافقا مما أثار استياءه. نثر البذور في الأرض كما أنه يزرع الحياة فيها، استقبلتها وتدارت بين التراب، جلس دريد تحت الشجرة، ورافقه حيدر بعدما أنهى رش البذار في الأرض، أخبر العامل حيدر أن مضر أصيب أثناء العمل، وكاد أن يقطع إصبعه، وأن أبا مضر لم يعطه أجره شهر، ليس هو فقط بل أكثر من عامل. تحمس حيدر للعودة إلى الحي؛ ليعرف ما سيجري للفصيح بعد عودته من العاصمة، ألقى التحية على أبي مضر وأخبره أن جرح ابنه بليغ ونزف من الدم الكثير، وأنه بحاجة إلى إسعافه. ضحك وهو ينظر إلى قطعة القماش المبللة بالدم حول إصبعه، وأخذ يروي ذكريات الماضي عندما كانت النساء تلد، وهن يعملن في الحقول. أرحام النساء صنادوق العجائب. نظر مضر إلى أبيه بحقد، حين تورم إصبعه واشتد ألما بعد ثلاثة أيام؛ شدد الطبيب على العلاج، كي لا يبتز إصبعه. طلب منه أن يتوقف عن العمل لحين الشفاء.

سعد علقمة وفرح واندھش من الأجواء التي رآها، أناس يتكاتفون ويحملون بعضهم بعضًا، فكرةً وشعارًا، وقيماً لا منتهية، تعني بالإنسان وحده، دون تفصيل وتقعيد.

شاهد الرجال والنساء والأطفال والكبار، يهتفون على الوتيرة ذاتها، قطع أفكاره حيدر حين أصر عليه لزيارة مضر، ذهباً إليه برفقة الفصيح، حدثهم عن أبيه وعن موته بجلطة غضب، تناسوا الأمر عندما وصلوا بيت رفيقهم، جاء أبو مضر وبدأ الحديث عن توقعاته بموسم زراعي جيد بسبب كثرة المطر الذي هطل على البلاد وتخوف قليلاً من موجات الحر الشديدة التي لا ترحم البلاد والعباد. تحدث عن أنواع الأسمدة الكيماوية ومبيدات قتل الأعشاب والآفات، وعن الخميرة التي يضعها مع مياه الري لتسريع نضوج المحصول، دخل مضر وقطعة قماش حمراء مربوطة على إصبغه، جلس يستمع إلى أبيه وتوقعاته.

كان أبوه يشرب الشاي وهو يضع الساق على الساق، عاد وأخبرهم أن الأسبوع القادم سيكون زواج مضر، وأكد على الجميع الحضور والمشاركة. تفاجئوا بالخبر وسألاه عن سبب الاستعجال إلا أنه هم بالخروج قبل أن يجيب؛ ليخفي البك أب عن عيون العمال. سأل الفصيح صديقه، عن سبب استعجاله بالزواج، أكد له أن ليس لديه رغبة بالزواج، وأن أباه مسؤول عن

كل هذا، هو الذي يحدد الرغبة والوقت والمكان، يحدد الحب والأحاسيس  
الحياة، الموت، وعليه أن يطيع ساكتاً. أبو مضر يرغب برؤية أحفاده.

قال علقمة إن مصيرنا كمصير آبائنا، جاهزين للزواج وإثبات فحولتنا،  
ولسنا معنيين بتكوين الأسر والتربية. بات الجنس فينا عقاباً، وآبناؤنا مواليد  
عبث ضائعين. وكان رأي الفصيح مشابهاً لرأيه.

يقشرون لنا الطرقات بسكين، حياة تحطم الفطرة، أعلن علقمة بعد  
تجربته

مع أبيه رفضه للزواج، التي بملح أظافرها مزقت يقظته وكانت الناطق  
الرسمي باسم عذابه الصامت.

كن أعزب وانح من الزوال.

لا تكن في رحم المغلوب

لا تسمح لليل بالجلوس على أريكة دمك

افترس الأسئلة قبل أن تجيب عنها، انزع الطين عن صوتك.

وطل من شرفة ذاكرتك، وشاهد صورك مع الهواء وأنت تذرّف  
الأنفاس الحرة.

صلى حيدر الفجر وحلب البقرة كالعادة، استيقظت عذاب على صوته  
وطلب من إمام أن يستيقظ كي يذهب معه ويساعده في العمل بعد أن تم

فصله من المدرسة نهائياً، رفض بشدة مهدداً بتخريب أحواض الزرع. اتجه إلى الأرض يحمل على كتفه المجرفة، وصل بعد ربع ساعة، وجد موزع المياه قد فتح الماء في الساعة صباحاً وترك الماء ينتشر في القنوات الصغيرة، تدارك حيدر الأمر واستطاع أن يغير مجرى المياه بحيث أصبح الماء يجري في قناة واحدة تتوزع على الأحواض المتقابلة لها، جاء دريد حاملاً بندقيته القديمة على كتفه بمشيته الهادئة وصل إلى حيدر يمسح عرق جبهته تحت الشمس الحارقة، أبدى إعجابه بالعمل وتمنى أن يكون محصولاً جيداً يجني منه رزقاً طيباً.

جلست تلتقط أنفاسها في الداخل ماسحة بيدها على جبين طفلتها النائمة، وتفكر بعودة حيدر، فكرت كثيراً بمن حولها، أولادها وماوية، وبنفسها، تنبش في الأشياء بهدوء وحكمة، عاد الأولاد من المدرسة، حيان، ليبد، دخلوا الغرفة وخلفهم صوت باقر يعلو في باحة المنزل منادياً على حيدر، خرج عليه حيان؛ ليرى أمره، أخبره أن حيدر في الأرض، طلب منه أن يخبره بالحضور إليه لأمر ضروري، سألت عذاب عن إمام، وعلمت ما علمت من أمره، عقلت ساخرة على الموضوع مؤكدة أنه كأبيه سوف يقضي عمره فاشلاً.



سمع ليبد عن قرب زواج مضر، أكد له حيان صحة الخبر، أكد له صحة الخبر، أخيراً سيشهد الحَيِّ عرسًا، وفرحًا. بعد غمامة الحزن التي مرت عليه، تابع أسئلته مستفسرًا عن موعد زواج أخيه الثاني، أخبره أنه لا يقدر على الزواج لأنه طفل منغولي.

وصل حيدر بعد أن أنهى سقاية الأحواض، كان يبدو رجلا طينيا لكثرة ما تغمد بالطين، أخبروه أن باقر جاء يسأل عنه ويريده في موضوع لم يفصح عنه، لأنَّ التعب يشاطره أفكاره وأحاسيسه، لم يعر أي اهتمام لمجيء باقر فقط طلب أن يرتاح، في الوقت ذاته، دخل أخوه إمام الغرفة، فانهالت عليه أمه بالشتائم. وأصرت على معرفة مصدر صور الفتيات العاريات التي تجدها في جيوبه، وقال إنه يجدها ملقاة في الشوارع.

قيل إن عفوا عاما سيصدر بعد انتهاء الانتخابات، عم الخبر أرجاء البلاد، علق إمام قائلًا:

- إن خرج يوم عيد ميلادي سأقتله.

انطلق صوت من مكبرات المسجد، يعلن وفاة المرشح اللات، أغلبهم أكد أن الصوت الذي خرج من مكبرات الصوت هو صوت إمام، أعلن وفاة اللات واللات لم يمت. والحق لم يشاهده أحدًا يدخل المسجد، اجتمعوا

وقررنا تكسير وحرق لافتات وصور العزى المنتشرة في كل مكان، وحرق بيوت ومزارع مؤيديه. الذين طرحوا الفكرة وأيدوها.

يا أبي، احفر، احفر، أنا سقراط لكل الشوارع، أفلسف الشارع، بريشة حفار تزاوّل مهنة ما قبل الموت. الموت ينقص من وزن ذاكرتها فيسهل حملها. لنرفع جسد الموت عنا عند الموت. بعد تجهيز فلسفة اليتيم على طريقته.

مع ازدياد النشاط والحراك الانتخابي، أكد باقر أنه يعرف أحد الأشخاص المقربين من اللات يستطيع أن يعطيه ألفي دينار على شكل قرض زراعي من صندوق الإقراض الزراعي بشرط أن يسدد المبلغ بالتقسيط وتكون لباقر نسبة لم يحددها، شجع حيدر، وطلب منه أن يقدم الطلب بحجة أنه يريد أن يشتري أغنام ويربيها.

لكنه رفض الفكرة، وأخبره أن لا قرض قبل أن يرى نتائج محصوله. راح يحسب له متنازلا عن جزء من نسبته، وشدّد في نصحه على القرض، أكد له بعد أن خلع نظارته، أن الموضوع سهل قبل أن تنتهي الانتخابات أما بعد انتهائها، فقد يواجه صعوبة كبيرة حيث قبل نهايتها يتنافس المرشحين لتقديم الخدمات للناس، أما بعد الانتخابات سوف تنتظر أربع سنوات

أخرى.

خرج من البقالة لم يعطِ الأمر أي اهتمام، خرج يجره التعب والإرهاق:

- تَبًّا لللات والعزى، تَبًّا تبا لكم.

تذكر باقر، لو صلاب موجود أن خرج قبل يوم الاقتراع سبيح الأصوات كلها، ممتاز، ممتاز، صوت أصلع لباروكة البلاد. سأل عن حيدر، دخل خيمته دون أن يزيد حرفاً واحداً، استغرب من حاله. شرب مضر الشاي، جلس القرفصاء سحب من جيبه علبة السجائر. أشعل سيجارته وسأل إن كانوا يعرفون شيئاً عن غضب دريد.

قطع حيدر الكلام وسأل عن سبب مجيء مضر متأخراً إلى الحقل، سأله إن كان لديه عمل في نهاية اليوم، لكنه ظلّ صامتاً، ينظف أسنانه المتهرثة بعود حطب رفيع. ثم أخبره مضر أنه جاء ليخبر العمال أنه لن يحضر مع أبيه في صبيحة اليوم التالي، لأنه يريد أن يشتري الذهب لعروسه.

انطلق الثلاثة حيث وجدوا أبو مضر يرتب الكراسي على جانب الطريق، بدا كل شيء جاهزاً، وبدأوا الأهالي بالتوافد، جلسوا ينتظرون موعد الدبكة والأغاني بعد أن غرقت المنسية بالأحزان.

زارت عذاب ماوية مصطحبة معها وليد وطفلتها، ظل إمام في الباحة يحرق الحطب، رد على أمه قبل خروجها:

- أشم الدخان، لا يوجد معي ثمن سجائر. وسأتعلم القمار.

تجاهلته وانطلقت مع صغيرتها وليد إلى بيت ماوية، بعد أن قل عدد النساء الزائرات لها.

اصطف أكثر من عشرين شاباً في الشارع أمام بيت أبي مضر ومعهم حيدر وعلقمة والفصيح، تشابكت أيديهم وبدأوا دبكتهم في أول ليلة فرح تشهدها المنسية بعد أن غرقت في الموت والحزن.

يخفي دريد ويظهر بين الفترة والأخرى، وصل الأرض برفقة إمام، مشى بين الأحواض، لازمه شعور غريب بالفرح، شرب الماء، وأخذ إمام يجمع القصب وسعف النخيل من أطراف المزارع، أطلق حيدر طلقة في الهواء. منذ أن رأى بندقيته حيدر تمنى أن يستخدمها ويطلق ولو طلقة واحدة في الهواء وأصر بداخله أن يطلب من دريد ذلك.

تنزل الطيور إلى الأحواض ثم تطير في محاولة لالتقاط شيء تأكله، وصل دريد إلى الشجرة وجلس على الأرض أبدى إعجابه بما قام به حيدر. نظر إلى عين حيدر المحمرة. تفحصها وأبدى قلقه من احمرارها، وقال إنها تعرضت

للغبار في الليلة الفائتة، عندما دبكوا على الشارع الترابي. طلب دريد منه مرافقته للخيمة حيث تجلس زوجته و لديها خبرة في معالجة الأمر، وافق وطلب من دريد ان يطلق طلقة واحدة من بندقيته، تناول حيدر البندقية بعد أن وافق دريد مستغرباً. وجه فوهة البندقية القديمة إلى السماء ضغط على الزناد خرجت الطلقة بصوت مدوي، حد أنها أربكت عفوية الشيب برأس دريد بعد أن سقطت الكوفية عن رأسه، وأخذها من حيدر وسارا إلى الخيمة.

دخل حيدر، ألقى التحية على العجوز ردت بصمت، لم تغير جلستها، لم يتحرك أي شيء فيها، أخبرها زوجها بالقصة وطلب من حيدر أن يتمدد في الخيمة. أحس أنها تريد أن تقول شيئاً أو تسأل، لكنها لم تقل شيئاً. غادرا الخيمة وسارا إلى مكان الشجرة لبناء العريش وهو يذكره بموعد دورة المياه القادمة وأن لا ينسى السباد بعد أن ينبت الزرع. عند الشجرة جمع إمام كومة من الحطب وسعف النخيل والقش ما يكفي لصنع عريشين أخبرهم أنه جهز كل ما طلب منه وينوي الانصراف ليحضر كلبه من عند صديقه.

بدأ دريد وحيدر بتجهيز وفرز القصب وسعف النخيل لبناء العريش، وأطلق دريد مخاوفه ونصائحه محذراً من حرارة الصيف وموجات الحر.

وطلب منه أن يضاعف كمية المياه، حيث الحكومة لا تعطي إلا كمية قليلة لا تكاد تكفي لري المحصول، وعليه أن يسرق المياه كما يفعل بقية المزارعين، دريد أوصل جميع المخاوف لحيدر وتكلم كثيرًا، أضع ساعة لسانه، زحف اليأس إلى نفسه.

بعد أن تم تثبيت العريش وأصبحت جاهزة بشكلها المخروطي، ودع حيدر دريد، عائدا إلى الحي، رأى الجميع أن بقعة، ماءً يعلوه رغبة كالقطن، تشرها الأرض على مهل، وبهدوء.

بينما هي واقفة أمام جبل الغسيل، تنفست الصعداء إذ أخبرها بما جرى له، ودخل يلعب أخته الصغيرة التي برز لها سن آخر في الفك السفلي. هدا الكلب وجلس ينظر حوله أخبرهم أن الكلب سيكون مأواه في القن القديم، وطلب من أمه أن تتخلص من الديك أو تذبحه، سحب الكلب برفق من السلسلة الحديدية الصدئة واتجه به إلى بيته.

أكد خبر العفو العام، اتجه حيدر بعد أن أنهى طعامه إلى باقر حيث قرر أن يجلس معه بعض الوقت في البقالة. وجد أبا مضر هناك، حيث بدأ يستمع إلى موضوع الانتخابات التي تشغل بالهم، وإلى أي حد وصل سعر الصوت، وأيمهم يدفع أكثر، اللات أم العزى، خصوصًا بعد إعلان خبر وفاة اللات الكاذب، دخل عليهم وهو في حالة أقرب إلى الغضب جلسته معهم قلبت

الأمر رأساً على عقب. عندما أخبرهم أنه سيرك البلاد ويذهب للعيش والعمل في بلاد أخرى، كان فرحاً لأنه سينجو من الكارثة، هي الكارثة، الكارثة، الكارثة؛ عندما تشبه البلاد أباك، وحدوده تغرق في الذاكرة بعد أن تكورت في الروح.

ضاق النهر أمامه، النهر عشقه الخالد، ودخل ضفتيه ووجد المنسية تحيطه شالاً له من قماش، أعشاب النهر، كأنه الكفن.

لماذا عدت، أنا حمار، أنا ثور، لماذا عدت، لماذا؟

طلب منه أبو مضر التريث وأن يخطو خطو حيدر، ويمتحن الزراعة، ويتزوج ويملاً الحي بالأولاد وبعدئذ تستقر أموره، مؤكداً له أنه على استعداد أن يبحث له عن عروس، مهرها لا يتعدى ثمن عجل، لتملاً له المنسية بالأولاد:

- لست من ينجب ويرمي الأولاد في الشوارع.

سكت، و طلب من الفصيح بعد أن فشل في إقناعه بموضوع الرحيل والزواج، طلب منه أن يبيعه صوته، بعد أن تحولت الانتخابات إلى سيرك كبير، وفضيحة لا تلتئم في التاريخ، ولا في الحقيقة.

اجتمع الكلّ في مكان قبض الثمن، في حمامات المسجد الكبير حتى لا يشك أحدٌ بالأمر، ضحك الفصيح وقام رادًا عليه بصوت عالي:

- أصابعكم شفرات حادة.

قيل إن صلاب ينوي الزواج بعد خروجه من السجن، هذا ما قالته ماوية تحديدًا، لم تهتم للأمر ورأت في زواجه الثاني أن يفك أسرارها، وتتخلص منه وبدأت تتخيل كيف ستعيش معه الزوجة القادمة وكيف، سيتدبر أمورها، وأين سوف يسكنها؟ لم تطل عذاب الجلسة في بيت ماوية سمعت الخبر وذهبت إلى باحة البيت تتفقد الغسيل. حيان وإمام يتجادلان بصوت مرتفع، وضع حيان حصاة صغيرة في فردة حذاءه الأيمن لمعرفة من يلبس حذاءه، وكل يوم يفقدها، حينئذٍ يتجادل مع إمام.

دخلت عذاب عليهم بطنها الكبير وبطفلتها التي تحملها على صدرها، سكتوا، كأنها أحدثت خدوشًا في غليان صراخهم؛ ثم عاودوا الصراخ والجدال. قرر الفصيح أن يرحل، إلى أي مكان بعيد. قرية تقطع أشجارها سهل عليها قطع أبنائها وسهل عليها تركهم بلا ماء، قرية تباع أصواتها هي قرية اشتراها الاستهتار. أريد بلادًا فيها العاطلون عن الفقر والعاطلون عن الكفر فقط!



حاول الجميع إقناعه بالبقاء، وأن يبحث عن عمل يناسبه، فمن يؤمن بالعمل يؤمن بالإبداع، ليس في ذاكرته ما يشجعه على البقاء، فقط أصر على المغادرة.

لم يبقَ له أمل، ولا حلم، لن يرضى أن يعيش كما عاش أبوه، تلاحقه اللعنة أينما حل، الرحيل يشد به رقصته المترهلة إلى عالم لا يؤدي به إلى الأبوة، رفض أن يضع نفسه، سيظل عازبا أبداً، وبعدهنَّ سيختار طريقاً واحداً، بعد أن عاش عمراً يقصد شعاباً عدّة. فقد عاش أمام إشارة حمراء في عائلته، ونشأته، سأخرج من حدود النفس المحتلة.

أصبح الفصيح حفرة انهدام، بل أخفض بقعة في العالم، سار حيدر والفصيح إلى نهر الأردن والأعشاب حوله ما زالت خضراء يانعة تمدد جذورها نحوها وبعضها يلفظ أنفاسه بهدوء بعد زحف الحرارة وتقلب الجوى، لا زالت الأعشاب تنبت، ويسقيها دم البلد.

جلس دريد مع زوجته في الأرض بعد أن زرعتها حيدر، ودعا الله أن يجني محصولاً وفيراً وجيداً.

نظرت العجوز إلى السماء، أخذت تبكي داعية الله أن يرد لها أولادها وأن تتمكن من رؤيتهم قبل أن تموت، أمعاء صوتها قفص جسدها، عندما يكون الصوت مدينة يجب إحراق بيوت الصمت حتى لا يتشوه منظر المدينة.

احتشد بعض الرجال والشباب أمام بيت أبي مضر تمهيداً للبدء بالسهرة والدبكة، فرش أبو مضر الساحة الترابية بالماء، كي لا يحدث الغبار، أخبر الفصيح مضر بما حدثه أبوه، لم يبد اهتمامه بالموضوع، كان همه أن يشفى من ألم إصبعه، كيف وجد نفسه على مشارف الحياة التي لطالما خاف منها، فإنه لم يتمكن من وضعه في إصبع يده المتورم والملتهب.

أضيئت الأنوار واللمبات المعلقة على السلك الكهربائي، ملاً المكان صراخ الأطفال، بعد أن شاهدوا مجموعة من الشباب تم لهم لتحضير الدبكة. لن يشاركهم الفصيح، فقد فضل أن يبقى جالساً. سأل أبو مضر نفسه:

- كم من النقود سوف يأتيني يوم الزفاف.

ذهبت عذاب مع ماوية إلى العرس، تركت إمام وحده في المنزل. بدأت أصوات زغاريد النساء تعلو صوت أقدام الرجال في حلقة الدبكة، بدأ منتظماً وجميلاً، زحف الكبار والصغار من داخل المنسية ومن خارجها. ازداد عدد الرجال في حلقة الدبكة، كان هناك أكثر من ستين رجلاً، أطلق أبو مضر بعض الرصاص في الهواء، فازداد صوت الزغاريد، جارحاً زغاريد النساء مع أزيد الرصاص المطلق في الهواء. هواء مغطى بالرصاص وفوضى مغشوشة الأصوات والمنسية تطفأ الرصاصات على جسدها.

أخرج أبو مضر، خاتم الزواج من جيبه حتى يشاهده أصدقاؤه، إن لم يستطع مضر ارتداءه.

الرصاص يعلو في الهواء كأنها المعركة أخذ أبو مضر يتسمم، يوزع ابتسامته تحت شاربه الأسود الكث، ويشغل نفسه بطرد الأولاد الصغار من حلقة الدبكة الذين دخلوا يجمعون الرصاصات الفارغة ليلعبوا بها، طرد أولاد ماوية اللذين دخلوا إلى حلقة الدبكة يحملون الحمص والفول المسلوق؛ لبيعه.

رقصت الرصاصات في أرواحهم وعلى بطونهم، ربما أخطأ مضر في مطاوعة أبيه، هكذا ظنّ في هذه الفوضى، قرر أن ينسحب، لكنه رجع إلى هذا الحدث الذي يتفشى بمستقبله، ولا يفتأ يتوقف، حتى يلتقط أنفاسه.

عرف حيدر أن الخلد سوف يقف له كعدو في الأرض، إلا أنه تنفس الصعداء عندما تذكر كلام دريد. أنها ليست تحدث أضرارًا كبيرة ومع ماء الري ستهرب من الأرض وتخرج من جحورها. لكنّ إمام مع الكلب في باحة البيت فك السلسلة التي تطوق عنقه بعد أن بدأ الكلب يألف إمام والمكان.

قبل أن يتجه إلى العريش لمح دريد سائرًا باتجاهه يحمل بندقيته على كتفيه وحلقات الدخان تخرج من فمه كأنها خارجة من نافذة بيت يحترق، وصل

دريد، ألقى التحية وجلس بعد أن أطفأ سيجارته بهرسها في التراب. أخبر حيدر أنه من قام بوضع الشجرة المقطوعة على جنب الطريق. وطلب منه أن يضع الشجرة المقطوعة على عرض الشارع بمسافة تبعد عن أرضه نصف كيلو متر لسد الطريق على مراقبين المياه. الذين يراقبون خطوط الماء يتنقلون على الدراجات النارية في الليل غصن الشجرة الكبير سوف يسد عليهم الطريق. وما إن ينزل المراقب عن دراجته النارية ليضع غصن الشجرة المقطوعة جانباً يكون أحد العمال قد أعاد غلق الصنبور وعامل آخر يسقي الزرع داخل الأرض لينجو المحصول من الهلاك والعطش.

سكت دريد وشعر حيدر أنه يريد أن يقول شيئاً لا يعرف ما هو، بدا كأنه غارق في عمق كبير، بعد أن أصر أن يعرف منه ما يجول في خاطره هز دريد رأسه وهو يمد يده إلى علبة السجائر، دخن سيجارته وبدأ حديثه.

سمع أن باقر يشتري أصوات الناخبين ويريد أن يبيع صوته وصوت زوجته العجوز لقاء مبلغ من المال يعينه على أوجاع الرزق التي دبت في شيخوخته، بعد أن انزلق على قشرة عوز يبحث عن خبز يبصر به، وضياح أبنائه يرمي له الحفر أينما ذهب وحل، أكد عدم اهتمامه لمن سوف ينجح أو يخسر، يريد مالاً يتدبر به أموره، كما باع أبنائه باع صوته.

صار باقر يؤجر الأراضي للقادمين من سوريا وباكستان، ومصر، لقاء مبالغ زهيدة. بعد أن عزف الأهالي عن استئجار الأرض وزراعتها، مياه الري قلت وارتفعت تكاليفها والأرباح لا تكفي لسد الاحتياجات. النهر ييث الحزن بشحوبه، ارتدى خروجه فيها، أصبح فوضى في لوحات قحطها، وحده الشتاء بمطاره يروي ظمأه وظمأ المنسية.

استمرت اتفاقيات بيع الأصوات، في مكانها.

تتنفس عذاب بصعوبة، وهي تطهو، علمت بأن إمام يأخذ دينارا لقاء تخريب وحرق اليافطات الانتخابية، أشارت ماوية إلى الكلب وهي تخبر عذاب أن ثمن الكلب وثمان علبة السجائر، هي المقابل الذي يدفع له على أثر حرقة وتمزيقه اللافات. شاهد دريد رجلاً ملثماً يتجه إلى العريش ومعه رجل آخر كان قد أنيا ليحرقا العريش.

التف الجميع حول الديك، أكلوه وأعطوا حصة للكلب، أصيب حيدر بحادث عنيف مع مجموعة أشخاص. نبح الكلب بشدة، ثم دخل عليهم يعرج بقدمه المصابة. عبر صلاب، تبع إمام الكلب إلى الباحة، وجلس بقربه عند قن الدجاج. همت عذاب بالصراخ تنادي على ابنها تفاجأت بوقوفه على العتبة، انتشر الخوف في لبيد، اتجه إلى حقييته، وأخذ منها كتاباً وبدأ يتصفح

به جالساً في الزاوية. وأخذ حيان يكتب على دفتر قديم له، دخل يحك رأسه بقوة، ومن ورائه سقط الباب الخشبي شبه المتناسك على الأرض.  
~~ انتهت ~~

بشارالنهجار

00971503354132